

الفكر التربوي في الحضارات ودوره في رقد الواقع

د. لطيفة حسين الكندري

كلية التربية الأساسية

الكويت

المُقدِّمة

تهدف هذه الدراسة إلى استعراض ملامح الفكر التربوي عبر الحضارات الإنسانية كما تعكسها كتابات المؤرخ الأمريكي وليم جيمس ديورانت (*William James Durant*) بغرض توظيفها في الواقع من باب دراسة تاريخ الأمم والحضارات القديمة وإدراك ما في مطاويها من العبر الماضية، واللمحات المضيفة.

إن مسيرة الحضارات يمكن أن يفيد منها المرابي بما ينمي خبراته وبما يرتقي بنظم التربية والتعليم (بحري، قطيشات، ٢٠٠٩م، ص ١١ - ١٢). لم تقم حضارة من الحضارات إلا حين كان العلم سيد الحياة، والمهيمن على حركة الحياة، وللوصول إلى هذا الهدف كان لكل علم منهج بحث موصل للمعلومة الصحيحة (بدوي، ١٩٩٠م، ص ٧٧). لقد انتبه المرابون الأوائل في الحضارة الإسلامية إلى دور التاريخ في تنشئة الأجيال فخصصوا له مباحث تفصيلية تتبع منابع الفوائد وتفرد لها المجلدات الضخمة لإبراز المضامين الحضارية في تضاعيف الأحداث التاريخية. ولقد توج ابن خلدون جهود السلف الصالح في هذا المجال فكتب مقدمته على ضوء وعي حضاري عميق سبق فيه علماء عصره.

واستنادا لما سبق، تحفظ كتب التاريخ وذخائر التراث عبر الأجيال ما وعاه الزمان من مواقف ولطائف فارقة تخدم البناء التربوي. تعني جميع الدول والأمم المتحضرة بالحفاظ على التراث بشقيه المادي واللامادي المتمثل في التراث الشعبي والتقاليد والمأثورات التاريخية وتقوم بفحصها وصيانتها واستثمارها ثقافيا. إن التنقيب في ثنايا التراث مهمة شاقة نظرا لرحابة التراث الإنساني وتناقض بعض اتجاهاته، وتنوع مساراته وتفاوت طبقاته. الخوض في رحاب الماضي على وجه اليقين لا يخلو من ومضات تربوية مضيفة،

ودروس تعليمية قاسية، ومقاربات عقلية معمقة. التراث الإنساني ثمرة عصور متباينة موعلة في القدم، وأجيال متميزة من مشارب شتى.

أهمية الدراسة

١. البحث عن السنن الكونية في نشوء الحضارات ورفي المجتمعات، وتغيرها عملية فكرية دائمة لا تتوقف. إن أهل الأبصار والبصائر هم الذين يتخذون من التاريخ سلماً لتصنيفية أنفسهم، وتحسين أخلاقهم، وتنمية عقولهم، وتهذيب وجدانهم. القراءة التربوية في الأحداث التاريخية واستنباط دروسها من أهم المساعي لتوسيع الفكر، وتدريبه على الإبداع، وشحن الهممة، وتهذيب النفس.

٢. البحث العلمي يعد من الموضوعات الأكثر أهمية في حضارة اليوم التي يمكن أن نطلق على أحد سماتها: "حضارة البحوث" (الفارس، ٢٠٠٢ م، ص ٣٠٥) التي تحقق فهماً أفضل عن الآخرين.

٣. شاركت جامعة الدول العربية بترجمة ونشر كتاب قصة الحضارة وساهم آخرون بترجمة كتب ول ديورانت وواصل الجمع الثقافي في دولة الإمارات بترجمة المزيد من الأجزاء في العام ٢٠٠٢ م ليكتمل الكتاب. والترجمة مرحلة أولى تتطلب بعدها دراسات لاحقة تقوم بالتحليل والنقد والتقييم والإفادة الموضوعية.

٤. تتجه التربية الحديثة نحو تأصيل الحوار بين الحضارات (**DIALOGUE AMONG CIVILIZATIONS**) والإسلام يرحب بذلك التفاعل لتبادل الخبرات دون تنازلات. إن فهم الجذور التربوية خطوة ضرورية لتحقيق التفاعل الإيجابي و لتكوين أرضية مشتركة وتعميق التقارب الفكري في عالم متوتر يشهد تطاحنا سياسياً، وأطماعاً اقتصادية، وصراعات ثقافية، وصدامات عقائدية.

٥. إن انشغال المرين بالعمل اليومي في مؤسساتهم التعليمية يحجبهم من الاطلاع على الكتب الموسوعية المتضمنة لروائع التربية والتعليم، ونظراً لضيق الوقت وكثرة الأعباء فإن الاطلاع على مثل تلك الكتب عند الكثير من المرين من الصعوبة بمكان. ولهذا يتعين على بعض الباحثين خوض غمارها واستخراج وتحليل تلك الموسوعات لاصطفاء ملامح التربية وجعلها قريبة المتناول، عظيمة النفع، سالمة من التعقيدات التاريخية، وخالية من التفصيلات الفلسفية، وبعيدة من الأحداث الطويلة والشروح المستفيضة.

٦. إن تناول الكتابات الاستشراقية من مجال التربية وإدراك ما في مطاويها من العبر الماضية من جهة، وتفنيد شبهاتها من جهة أخرى مهمة ملحة في عصرنا.

٧. يتضمن كتاب قصة الحضارة - مادة من أهم المواد التي تعتمد عليها الدراسة الراهنة- على إطلالة شاملة على ما يربو على مئة وعشرة قرون ويحظى بتقدير عالمي كبير.

أهداف الدراسة

١. عرض الفكر التربوي بأسلوب منهجي عبر استقراء كتابات ديورانت لا سيما كتابه المرموق قصة الحضارة.
٢. التجديد في طريقة تناول الفكر التربوي.
٣. تقديم مبادئ التربية وملاحظاتها للمعلمين والمعلمات وتعميق ثقافتهم بقراءات في فلسفة التربية.
٤. تحليل الكتابات الغربية والإفادة منها تربوياً.
٥. معرفة أسس التربية الحضارية وما تتضمن من تربية السلام والتعارف والتفاعل وتوظيفها في العصر الراهن ثقافة وسلوكاً في ظل الاحتفاظ بالهوية.
٦. توسيع نطاق القراءة التربوية ومحاولة تقديمها موجزة سائغة لأكبر شريحة من المهتمين بالتربية، وتوظيف الكتب الموسوعية التاريخية والفلسفية التي في الغالب لا يطلع عليها إلا أهل الاختصاص من المتبحرين في البحث.

أسئلة الدراسة

١. ما المقصود بمصطلح الحضارة؟
٢. ما أبرز الخصائص التربوية للحضارات الإنسانية من منظور ول ديورانت؟
٣. ما أبرز سمات الحضارة الإسلامية من منظور ول ديورانت؟
٤. كيف ساهم الفكر التربوي عبر العصور في تنمية الأسرة؟
٥. إلى أي مدى تطرق ديورانت إلى التربية المجتمعية؟
٦. كيف نوظف المبادئ التربوية المثبوتة على امتداد مسيرة الحضارات في حياتنا المعاصرة؟

منهج البحث

هذه الدراسة دراسة تاريخية وصفية تحليلية تنقسم إلى شقين؛ حيث يركز الشق الأول على كتابات ول ديورانت وتتبع وتتقي الملامح التربوية وتتناول طائفة من مضامينها الواضحة ومفاهيمها المتناثرة في تضاعيف ألوف الصفحات التي كتبها ول ديورانت. يتعذر الاستشهاد بكل الإشارات التربوية المجموعة من الكتابات محل الدراسة، ولهذا سيتم الاكتفاء بالإشارة السريعة أو العابرة في الغالب كي لا يتضخم البحث الراهن بالنقول. وفي الشق الثاني -وفي خط مواز- يقدم البحث مجموعة أفكار تربوية سبق اقتناصها ويقوم بتنظيم وتحليل المعلومات حسب أسئلة البحث مع القيام بذكر طرف من الشواهد والأمثلة لتعزيز ما يتم استنباطه من نتائج مع مقارنتها بسائر الكتابات حسب ما تقتضيه الحاجة.

حدود البحث

يقتصر هذا البحث على تتبع تطور الفكر التربوي في كتابات ول ديورانت في كتبه الرئيسية التالية:

١. قصة الفلسفة. يتكون من مجلد واحد.
٢. أبطال من التاريخ: مختصر قصة الحضارة. يتكون من مجلد واحد.
٣. قصة الحضارة. يتكون من ٤٧ جزء في ٢٤ مجلد علما بأن المجلد الأخير يتكون من جزئين ويتضمن على مقدمات عربية وفهارس. درج الباحثون أثناء توثيق اقتباساتهم من هذا الكتاب على الإشارة إلى اسم ول ديورانت الزوج دون الإشارة إلى اسم الزوجة إيرل التي شاركت معه في كتابة بعض الأجزاء، لهذا سنذكر اسم ول ديورانت فقط.

يحمد لدار الجيل ببيروت، والمنظمة العربية للثقافة والعلوم في تونس، والمجمع الثقافي في الإمارات ترجمة ونشر كتاب قصة الحضارة والاعتناء به. وفي البحث الراهن سيكون الكتاب المطبوع -قصة الحضارة- هو الأساس يراد ذكره في تضاعيف البحث عبر ذكر اسم المؤلف (ديورانت)، ثم الجزء، ثم الصفحة دون ذكر السنة لأن الكتاب لا يحمل سنة للطبع ولا إشارة لرقم الطبعة. وإذا تم الاقتباس من نفس الكتاب المنشور من نسخة موقع المجمع الثقافي فالإشارة تكون بذكر الصفحة فقط دون ذكر السنة علما بأن البحث الحالي استفاد استفادة كبرى من الكتاب المطبوع والإلكتروني من قصة الحضارة.

نبذة عن كتابات ول ديورانت

قام ول ديورانت (William James Durant) بتأليف كتاب قصة الحضارة ولقد ساندته زوجته إيرل ديورانت (Ariel Durant) (١٨٩٨-١٩٨١م) في بعض المجلدات ولقد استمر عملهما في تأليف الكتاب ما يقارب من خمسين سنة (John Little and the Estate of Will Durant, 2006).

الكتاب ثمرة جهود مضمّنية وصبر وأناة وعمق فكر رغم النقد اللاذع الذي قدمه للكثير من الحضارات ومنها الحضارة الغربية والعربية على حد سواء. يتضمن كتابهما فيض من الأفكار الفلسفية والتاريخية والتربوية والثقافية مستوحاة من حياة الأمم في قلقها واستقرارها، وتقدمها وسقوطها.

نال ديورانت (١٨٨٥-١٩٨١م) على الدرجة الجامعية من جامعة كولمبيا وتلمذ على يد جون ديوي في علم الفلسفة ونال درجة الدكتوراه من تلك الجامعة سنة ١٩١٧م. وفي عام ١٩٢١ أسس مدرسة "ليبر تمبل" (Labor Temple School) التي أصبحت من أهم المدارس، بل وأنجح التجارب التي أجريت في تعليم الكبار (adult education) في العصر الحديث (انظر مقدمة فهارس كتاب قصة الحضارة).

ذكرت الموسوعة البريطانية (٢٠١٠) أن ديورانت وزوجته عُرفا بأتهما من أفضل الذين كتبوا عن التاريخ والفلسفة العامة. ورد في مقدمة كتاب قصة الحضارة "قصة الحضارة موسوعة في فلسفة التاريخ... والخلاصة أن هذه السلسلة ذخيرة علمية لا غنى عنها للمكتبة العربية ولعشاق التاريخ والأدب والعلم والفن والاجتماع وجميع مقومات الحضارة" (باختصار).

لقد تعلق ديورانت بهذا الكتاب فاستولى على فكره واستحوذ على وقته فقال "هذا هو المجلد الأخير في قصة الحضارة التي كرسنا لها نفسينا عام ١٩٢٩، والتي كانت شغلنا اليومي الشاغل وسلوى حياتنا منذ ذلك التاريخ... طفنا بالعالم مرتين، وبأوروبا مرات لا تحصى من ١٩١١ إلى ١٩٦٦" (ج٣٩، ص ٧، باختصار). وفي ختام الكتاب يقول "وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم فإننا سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً" (ديورانت، ٤٢، ص ٤٩٦-٤٩٧).

وعلى المستوى العربي فلقد وجد كتاب قصة الحضارة انقساماً في الرأي في الحكم على قيمته العلمية. يذهب بعض الباحثين إلى أن ول ديورانت "مستشرق يهودي صهيوني حاقد" (الصلابي، ٢٠٠٧م، ص ٨٩) بينما يرى محمد بدران -الذي شارك في ترجمة كتاب قصة الحضارة- أن ديورانت أنصف الحضارة الإسلامية وهذا الرأي يتفق مع رأي شوقي أبوخليل الذي كتب كلمة التقديم لفهارس كتاب قصة الحضارة. واعتبر بعض المربين من مثل سعيد إسماعيل علي (١٩٩٦م) أن عبارات ونظرات ديورانت تتضمن جوانب تربوية وتاريخية دقيقة (ص ١١) يمكن الاستفادة منها والاستناد عليها. يقول صبحي درويش (٢٠٠٨م) "كان ديورانت يتمتع بعقل نقدي وفلسفي، وثقافة واسعة وعميقة، وكان رجلاً نزيهاً وموضوعياً، يتحرى الحقيقة، ويحرص عليها، وكان عالماً وأديباً وفيلسوفاً وفناناً في آن واحد".

وأمام هذه التوجهات المتغايرة يتعين التذكير بأن القيمة العلمية لكتاب قصة الحضارة رغم سلبياته هي التي جعلت ثلة من الباحثين الاعتكاف على ترجمته ونشره نظرا لأهميته. وفي العموم وبعيدا عن ديورانت، يجب عدم تقليل القيمة الإبداعية للعقل الغربي "فهي إبداعات مهمة وإسهامات حقيقية للتراث الإنساني" (المسيري، ٢٠٠٨م، ص ٨٧). كان الشيخ محمد عبده معاديا للهيمنة الأوربية ولكنه سعى إلى الاعترافات بإسهام الحضارة الغربية (الطراح، ٢٠٠٤م، ص ١٢٠). تشيع ثقافة الشك الأبدي بالغرب بين مثقفينا العرب والبعض على استعداد لإنكار طلوع الشمس في الصباح لو جاءت الحقيقية من الغرب وهذه ظاهرة سيئة (زكريا، ٢٠٠٢م، ص ١٣) فأمسى الغرب اليوم رمزا للشيطان العصري وانسحب على كل أمر يملكه الغرب، مفيدا كان أم ضارا (السيف، ٢٠٠٦م، ص ٨٦). وكأن الغرب كيان واحد وتوجه محدد وهذا الرأي فيه تسطيح فكري محل للغاية لا يقل خطورة عن التوجه إلى إتباع الثقافة الغربية دون نقد.

الإطار النظري

يعج الفكر البشري بالتجارب الموفقة وغيرها مما يجعلها - بما فيها من كدر وصفاء - مخزنا متناميا للخبرات الإنسانية ورافدا عظيما للمربين عبر القرون يستلهمون من الدروس الماضية محاسن العبر ويقتفون من مسيرتها أملا في التطوير وتحسين الحياة المعيشية. كلما اقترب المجتمع من الحضارة زادت شروطها ومتطلباتها المادية والمعنوية أو كما قال الزهاوي:

وإذا تقدمت الشعوب حضارة * تزداد فيها للحياة شروط
تحت التربية الإسلامية الإنسان المسلم على أن يطلع بفؤاد منصف، وفكر حر على ثمار البشر وينظر إلى أحداث الأمس بعين الاعتبار وقد قيل "السعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ به غيره". وهذا التوجه الكريم يجلب جملة فوائد ويحقق العديد من المقاصد الفردية والاجتماعية منها الانفتاح الواعي المتزن على الآخر، وتحسير الفجوات وتحذير العلاقات. يساهم الاطلاع على التاريخ الإنساني عملية التفاهم بين القبائل والأجناس. قال تعالى في سورة الحجرات "يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ... (١٣)". وعليه فإن التربية الإسلامية تجعل الحضارات موطن عبر وعظات (ISLAMIC HORIZONS, 2001, P. 6 & SIDDIQI, 2001, P. 30) ويحث على التعايش دون التنازل عن الحقوق والثوابت ولا بد من نشر هذا الفقه الحضاري كي نتعارف ونتعاون مع الشعوب. إن استلهام إنجازات التراث الإنساني طريقة لمعالجة المشكلات المتجددة ومواكبة مسيرة الحضارة الإنسانية وهي أيضا طريقة مفصلية وإستراتيجية مهمة لتطوير التربية العربية (المنظمة العربية للتربية والعلوم، ٢٠٠٦م، ٤٧).

"إن الانفتاح على التجارب الإنسانية والانتفاع بإيجابياتها، والأخذ بأقوم النظم والمناهج التي ثبتت صلاحيتها وسلامتها ومنافعها، من الوسائل المساعدة على إنجاز الأعمال الكبيرة التي تفيد الأمة والإنسانية نفعا عظيما... والتجربة الإنسانية حق مشاع لكل البشر، والحضارة الإنسانية، إنما هي جماع إبداع الشعوب والأمم ... ولذلك يتوجب على الأمة الإسلامية أن تفيد من العطاء الحضاري الإنساني، وأن تتفاعل معه، وأن تضيف إليه وتسهم فيه" (التويجري، ٢٠٠١، ص ٨١، باختصار).

وعندما نطلع على الفكر التربوي الرحب نجد كونفوشيوس يؤكد على قيمة التاريخ في تكوين المعلم فيقول "إن الذي يستطيع، بمحاكاة القدم، أن يكتسب معلومات عن الحديد يصلح أن يكون معلما". (تشي، ٢٠٠٦م). ويذهب ول ديورانت إلى أن "التاريخ تعليم فلسفي بواسطة الأمثلة"، التاريخ جزء لا يتجزء من الفلسفة... إن أفضل إعداد لفهم مشكلات الحاضر إنما هو دراسة الماضي. ففي الماضي يتسنى للمرء أن يكتشف ماهية البشر (ليتل، ٢٠٠١م، ص ٩، ١١). ويرى ديورانت "إن التاريخ، من بعض الوجوه، ليس إلا تعاقباً لموضوعات متعارضة، فإن الطباع والأشكال السائدة في عصر ينكرها ويبرأ منها العصر الذي يليه" (ج ٢٦، ص ٦٠). ويذكر ديورانت أن التاريخ يحيط بأفضل العقول في خير العصور، "والتاريخ ينبغي أن يكون له مكان أكبر في التعليم المدرسي" (ج ٣٨، ص ٢٤٧).

يطالب بعض الباحثين بتدريس مقرر جامعي باسم "قيام الحضارات وانحيارها" لأن الإسلام "دين منطقة هي مهد حضارات عديدة توارثتها وهي تميزها بكل أسبابها وآثارها الإيجابية والسلبية التي كانت وما تزال تلقي بظلالها على الشخصية الحضارية لشعوب الأمة، ولذلك يجب أن يكون هذا التاريخ والإرث الحضاري بشكل علمي شمولي في وعي الكوادر الفكرية والقيادية لأبناء الأمة الإسلامية" (أبوسليمان، ٢٠٠٩م، ص ٢٠٥). وتقوم كثير من مؤسسات إعداد المعلم في علمنا العربي بتقديم مقررات تتطرق أحيانا لذلك من مثل مقرر تطور الفكر وتطور الفكر التربوي الإسلامي وتاريخ الحضارة الإسلامية.

تتجه التربية الحديثة نحو تحليل الأحداث الماضية على ضوء مناهج عصرية وصولا إلى الإفادة من خبرات الأمس وخبراته. لقد غدا فكر غاندي وغيره من عظماء التاريخ يقدم للفكر التربوي الراهن منارات يقتدي بها أهل الميدان في نشر التسامح وقيم التعايش (Scherer, 2010, p. 5). الكثير من الممارسات المدنية في حياتنا اليومية هي من النتائج الثقافية لأحداث ماضية فلا زالت نتائج الثورة الفرنسية مثلا تؤثر في الحياة حيث عززت الثورة حرية الحديث والصحافة والاجتماع وهناك الكثير من مبادئ الديمقراطية (ديورانت، ج ٤٣، ص ٣١٩) تشكلت بداياتها التطبيقية هناك كما أن سيل

الاختراعات لا زالت تؤثر في حياة البشر إيجابا وسلبا فضلا عن سائر المنجزات والصراعات ومن المفيد دراستها لاستنباط العبر وتحري الصواب، وتحريك الواقع، وإعمال الذهن.

إن قيمة التراث الإنساني في كونه أفكار ووسائل نأخذها من الماضي لنستخدمها ولنضيف إلى ما استحدثناه من طرائق جديدة، ومن هنا فإن الأمم والشعوب تأخذ من تراث الأقدمين ما تستطيع الانتفاع منه اليوم وتطبيقه تطبيقا عمليا ليدخل إلى نسيجنا الحي، والحضارة العالمية بحاجة إلى كل لون من ألوان التراث (شومان، ٢٠٠٩م، ص ١٩، ٤٧). واليوم وفي هذا العصر -تحديدا- يجب أن يفتح العقل المسلم على "الحكمة" و"الصواب العقلي" والإبداع المعرفي ويجب أن نحيي من تراثنا وتراث غيرنا ما يزكي هذا الانفتاح، فالحكمة مهما كان مصدرها لا بد أن تدعم هوية الأمة، بينما الجمود والتقليد هما اللذان يقيمان قطيعة مع أصلتنا ومع العصر الذي نعيش فيه (الحبيب، ٢٠٠٨م، ص ١٢٦-١٤٣).

الدراسات السابقة

الدراسات العربية

هدفت دراسة الشاهين (٢٠٠٩م) إلى التعرف على جميع أبعاد تطور الفكر التربوي، سواء أكان ذلك على مستوى المفاهيم أم الأهداف أم المجالات. كما هدفت إلى تحديد دور أنساق القيم وآثارها في النظم التعليمية متعددة المستويات، وأثر العولمة على نسق القيم السائد في المجتمع. ناقش الباحث مضامين الدراسة في ستة فصول. تناول الفصل الأول مدخل إلى الفكر التربوي، وتوصل الباحث في هذا الفصل إلى نتيجة مفادها أن بناء السياسة التعليمية يجب أن تترايط فيه، وتتكامل معه جملة من الاختصاصات والاهتمامات والتطلعات، مما يعني أن وضع السياسات التعليمية ليس محصورا بالتربويين فقط. وناقش الباحث في الفصل الثاني إسهامات الحضارات الإنسانية والمفكرين في الفكر التربوي لتعزيز القيم. وتناول الفصل الثالث نظريات الفكر التربوي المعاصر. وشرح الباحث في الفصل الرابع نظرية القيم في الفكر التربوي المعاصر. وفي الفصل الخامس فقد تطرق الباحث فيه إلى أنساق القيم التربوية وتأثيرها على النظم التعليمية.

ناقشت دراسة شيحة (٢٠٠٦م) تطور الفكر التربوي في العصور القديمة والوسطى. ركز الباحث في الفصل الأول على التاريخ ومذاهب المؤرخين في كتابته ومبررات دراسة تاريخ التربية. وناقش الباحث في الفصل الثاني التربية البدائية. وفي الفصل الثالث تطرق إلى التربيات الشرقية القديمة كالتربية الصينية والهندية القديمة والفرعونية والعبرية القديمة. ركز الباحث في الفصل الرابع على التربية الإغريقية. وجاء الفصل الخامس عن التربية الرومانية وفي الفصل السادس تحدث الباحث عن التربية النصرانية في العصور

القديمة والوسطى. وذكر الباحث سمات التربية العربية قبل الإسلام والتربية الإسلامية في الفصل السابع. وختم الباحث فصول الكتاب بالتربية الأوروبية الحديثة وجاء ذلك في الفصل الثامن.

ركزت دراسة وطفة والشريع (٢٠٠٥م) على دراسة التربية تاريخاً والفكر التربوي تطوراً. ناقشت الدراسة فوائد دراسة تاريخ التربية ومن أهمها: قراءة التاريخ ولا سيما تاريخ التربية تلي فضولنا العلمي إلى الكشف عن الأفكار والحقائق التي تتصل بتاريخ التربية. وتمنحنا قراءة التاريخ فكرة أصيلة عن قوانين نمو الفكر التربوي وازدهاره وتضعنا في صورة الخبرة الماضية التي يمكنها أن تخصب تجربتنا التربوية وتغنيها. كما تمكننا قراءة التاريخ من تفجير إمكانية المحاكمة والاستدلال والتفكير والتأمل والقياس. بدأت الدراسة بالحديث عن التربية لدى الأقوام البدائية، ثم التربية الصينية القديمة، وانتقلت بعد ذلك إلى التربية الهندية، وبلاد الإغريق واليونان، والرومان، والمسيحية، ثم التربية الإسلامية والتربية في العصر الحديث إلى أن جاء إلى دراسة التربية في القرن العشرين. وختمت الدراسة بدروس وعبر من التاريخ.

تناولت دراسة يونس (٢٠٠٥م) تاريخ التربية والعوامل التي تأثرت بها منذ العصور البدائية وحتى نهاية القرن العشرين. وعرض الباحث في دراسته مراحل تطور التربية عبر العصور والأزمنة المختلفة معتمداً في ذلك على الكتابات الأصلية للفلاسفة والمربين الذين عاشوا في الحضارات المختلفة. كما ناقش الباحث تأثير الظروف والبيئات الجغرافية والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتركيبية السكانية، لمعرفة انعكاسات ذلك كله على حاجات الناس التربوية.

الدراسات الأجنبية

جاءت دراسة (Guttek, 2005) لتؤكد على ضرورة العناية بدراسة تاريخ التربية على مستوى الحضارات حيث تشير مسيرة الفكر التربوي المعاصر إلى أن دراسة حقل التاريخ والفلسفة من أهم أصول التربية وهي مهمة للمعلمين لأن رواد التربية عبر القرون ساهموا في تشكيل وتطوير التربية نظرياً وعملياً فكانت ومازالت تؤثر في واقعنا المعاصر. تكشف الدراسة كيف أن رواد التربية من أمثال كومنيوس وروسو وبستالوزي وفروبل ومنتسوري وفيجوتسكي وبياجيه لعبوا دوراً حاسماً في خدمة قضايا الطفل والمجتمع ومبادئ الحياة الكريمة. يتمحور عمل الباحث حول الحركات الكبرى في تاريخ العالم، والسير الذاتية للمربين من أعظم رواد التربية، والفلسفات والإيديولوجيات التي نتجت عن أفكارهم. يشير الباحث إلى ضرورة استخدام السيرة الذاتية لتعزيز ودراسة الأحداث الكبيرة في التاريخ لتكوين رؤية أعمق وأدق عن حقائق تغيرات المجتمعات. قدم الباحث الكثير من المبادئ التربوية من خلال قراءة السير الذاتية لما يقارب من ٢٢ عالماً هم من أبرز المنظرين والفلاسفة والمربين لبيان وفهم أفضل لحالة الإنسان ومسيرته التي شكلت الحركات التاريخية الكبرى. يقدم الكاتب مقدمة مهمة لدراسة الأسس

التاريخية والفلسفية للتعليم عبر القرون. تناول الباحث السير الذاتية لمجموعة من المفكرين على رأسهم توماس الأكويني ، وهوراس مان ، وفرويل ، آدمز ، وجون ديوي وتشمل المعلومات قضايا محورية ومدى تأثيرها على الماضي والحاضر. وقام الباحث باستكشاف السير الذاتية والأفكار التربوية لأرسطو، يوهان أموس كومينيوس، ماري ولستونكرافت، جون ستوارت ميل ، وماو تسي تونغ. ربط الباحث بين التاريخ، وبين الفلسفة ليستخرج الفوائد التربوية من المصدرين السابقين. أكد الباحث على أن تقديم لمحة تاريخية عن التعليم في العالم أمر في غاية الأهمية للمربين لمعرفة سمات النظريات التربوية وفلسفاتهما وسياقاتها التاريخية لتعكس التطورات الدولية الأخيرة.

تتناول دراسة (Dunn, 2005) أسس التربية الاجتماعية والفلسفية وتطبيقاتها المعاصرة. تقوم الدراسة على أساس الاعتقاد بأن فهم المعطيات الكبرى في الفلسفة التربوية خير عون لتكوين المعلم ليحاري التعليم المعاصر ويتجاوز مصاعبه. تتضمن الدراسة خلاصة غنية من قراءات تربوية من عدة قرون مرتبة زمنياً. تحاول الدراسة أن تربط بين الآراء التعليمية للقدماء (ancients) وبين آراء ما بعد الحداثة (postmodernists). وعليه فالغرض الرئيسي للدراسة ربط الفلسفة التربوية بتطبيقات عملية في الفصول الدراسية والحياة اليومية ومقاربة الفلسفات المتنوعة وتتبع توجهاتها. أشادت الدراسة بجهود ابن سينا العلمية وبعقليته الأملية (ص ٩٩).

وفي دراسة لمجموعة باحثين أشرف عليها (Palmer, 2001) قام المشاركون بتقديم دراسة شاملة لأهم المفكرين في الحقل التربوي في القرن العشرين. قام المشاركون باختيار خمسين عالماً وقدموا دراسات تربوية لأهم أفكارهم الرئيسية مع تقديم تقويم سريع لها. اهتمت الدراسة بإبراز رواد التربية من مثل جان بياجيه وبيار بورديو، وماريا مونتيسوري، وبرتراند راسل، وايفان اليتش، وغاندي وسوزان إليوت وهنري جيرو. كل ترجمة تتضمن على قدر متعمق من المعلومات المتصلة بالسير الذاتية لكل فيلسوف، ثم المنجزات الرئيسية والأنشطة التعليمية، ويتبع ذلك كله تقييم للأفكار وبيان مدى تأثيرها في الساحة الفكرية. وجاء في نهاية كل ترجمة قائمة تحتوي أبرز المراجع ذات الصلة مع قائمة بالقراءات الخارجية المقترحة. تكشف الدراسة عن مدى تنوع وتطور الفكر التربوي الإنساني.

قام ري ميسغ ودويت ألن (Ray Muessig & Dwight Allen, 1962) بدراسة الإسهامات التربوية للحضارة الإسلامية وهي دراسة تنضح بالتسامح إلى حد بعيد حيث تتناول التربية الإسلامية ودورها الحضاري عبر القرون. يبدأ البحث بالتأكيد على أن الإسلام والمصادر الشريفة الأخرى لها عظيم الأثر على التربية الغربية بشكل غير مباشر ولذلك يتم تجاهله عكس التربية اليونانية. يبدأ الباحثان بإيراد مجموعة كلمات مثل الجبر والقطن والسكر والليمون للدلالة على أن الطلبة في جميع المراحل الدراسية في

أمريكا يستخدمون يوماً كلمات أُخذت من العرب وأنه لا يمكن تصوّر مهنة من المهن لا تتصل بعلوم المسلمين فالصيدي وأمين المكتبة والمعلم كلهم متأثرين بها في ممارسة أعمالهم كل حسب تخصصه. يستعرض الباحثان جهود الغزالي وابن خلدون والزرنوجي في حقل التربية والتعليم ومن الحقائق التي تناولها البحث ما يلي:

١. نجح الإسلام في توليد دافعية حب المعرفة والثقافة والحرص على البحث العلمي وعمل التجارب.
٢. أعظم إسهام عالمي للمسلمين هو عنايتهم بالأرقام وعلم الرياضيات.
٣. كانت المساهمات الحضارية الإسلامية في الجانب النظري والعملي معاً.
٤. هدف التربية الإسلامية الموازنة بين احتياجات الروح ومتطلبات الجسد.
٥. علاقة العالم بالمتعلم علاقة متميزة لا تخلو من المعاني الإنسانية من شفقة ورحمة وإحسان.
٦. لعبت المكتبات العامة دوراً هاماً و متميزاً في حياة المسلمين منذ عهد مبكر من تاريخهم.
٧. نشأت الجامعات الأوربية في حقيقتها كبذرة من بذور الحضارة الإسلامية.
٨. أبرز مساهمة إسلامية للنظرية التربوية أنها تحركت بها نحو توسيع دائرة التربية ودفعها نحو العالمية والمجانية.
٩. جهود ابن خلدون رائدة في كيفية قيام المعلم بشرح الدرس في الفصل بخطوات مرسومة.

محاوّر الدراسة

المحور الأول: الحضارة

ما المقصود بمصطلح الحضارة ؟

الحضارة لغة كما ورد في القاموس المحيط: "الحضارةُ، ويفتح: خلافُ الباديةِ. والحضارةُ: الإقامةُ في الحضَرِ". قال الشاعر: فَمَنْ تَكُنَّ الحَضَارَةُ أَعَجَبْتَهُ * فَأَيُّ رِجَالِ بَادِيَةٍ تَرَانَا. والحضارة من مظاهر الرقي في شئون الحياة. قال ابن خلدون في مقدمته الخالدة وهو يعرف الحضارة "والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه" (ص ٣٣٤). والحضارة تقدم إنساني وركي واستكشاف الحياة للوصول حياة أفضل وهي حصيلة جهود الأمم (الزحيلي، ٢٠٠٩م، ج ٦، ص ٦٣٨).

والواقع أن تخصيص مصطلح الحضارة للدلالة المكانية واقتصره على أهل المدن والحوضر فيه افتئات كبير على أهل البادية، فالحضارة صفة فطرية لا صلة لها بالمدينة أو البادية (محمود، العبدلغني، السهيل، ١٩٩٧م، ص ٩ - ١٠). يفرق بعض الباحثين بين الثقافة وبين الحضارة "فالثقافة، تختص

بالتعبير عن الدراسات الأدبية والنظرية والعقلية والفلسفية وما يتعلق بالأمر المعنوية والدينية والروحية. وأما الحضارة: فتختص بالتعبير عن الوسائل والمخترعات والابتكارات الصناعية والمادية والتجارب الكونية" (محمد وآخرون، ١٩٩٨ م، ص ١٠، مؤنس، ١٩٩٨ م، ص ٣٩٠). ويميز الباحثون بين المدنية والحضارة عن طريق تحديد دلالات كل منهما (جيرار، و دغيم، ٢٠٠٦ م، ج ١ ص ١٠٥٠)، فالحضارة تشمل على النشاط الاجتماعي من كافة جوانبه الروحية والمادية، أما المدنية فهي مجرد النشاط المادي للمجتمع وبذلك تكون المدنية جانبا من جوانب الحضارة (خريسات، وآخرون، ١٩٩٩ م، ص ٢٣).

عرف ديورانت الحضارة في بداية كتابه قصة الحضارة بالآتي "الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون؛ وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطوع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها" (ص ١٣). وعليه فإن الحضارة عند ديورانت "ذلك النظام الاجتماعي الذي يدعم الإبداع الثقافي، فهو إذن ينظم أبواب الحكم، والاقتصاد (أي الزراعة والصناعة والتجارة والمالية)، والأخلاق، وآداب السلوك، والدين، والفن، والأدب، والموسيقى، والعلم، والفلسفة، وهدفه التاريخ المتكامل-أي تغطية جميع نواحي النشاط لشعب ما في منظور واحد ورواية موحدة" (ج ٣١، ص ٣). ويرى ديورانت بعبارة مختصرة أن الحضارة تعني صيرورة الناس مواطنين متمدينين (ديورانت، ٢٠٠١ م، ص ١٧)، وأن التربية نقل للحضارة (Education is the transmission of civilization) من جيل لآخر، وأن جميع العلوم تبدأ بالفلسفة وتنتهي بالفن (Every science begins as philosophy and ends as art).

وكذلك عرف ديورانت الحضارة بأنها "شعب له نظام اجتماعي قامت عليه حكومة وقانون ودين وأخلاق وعادات وتقاليد ونظام تعليمي، مع إتاحة قدر كاف من الحرية للإبداع والتجربة وقدر كاف من الحرية لتكوين الصداقات وعلاقات الحب وأعمال الخير وتطويرها، وقدر كاف من الحرية يُتيح إبداع فن وأدب وعلم وفلسفة" (ج ٤٥، ص ٢٩). وينقل التعريف التالي "وليس التاريخ إلا موكب الدول والحضارات التي تنشأ وتزدهر ثم تضمحل وتفنى، ولكن كلاً منها تخلف وراءها تراثاً من العادات والأخلاق والفنون تتلقاه عنها الحضارات التي تأتي من بعدها" فهي كالعديدين في سباق يسلم كل منهم مصباح الحياة إلى غيره" (ص ٣١٣٣).

لقد انتبه ديورانت إلى غلو الغرب الذي أهمل تراث الشرق ولم يعتبره أساس الحضارة. إن قصتنا الحضارية كبشر تبدأ بالشرق من منظور ديورانت وهذه ملاحظة ثاقبة انتقد بها تحيز الغرب ضد حضارة الشرق. كانت آسيا مسرحاً لأقدم مدنيّة معروفة، بل كذلك تلك المدن ككونت البطانة والأساس للثقافة اليونانية والرومانية. يعترف ديورانت أن التعصب الإقليمي الذي ساد كتابات الغربيين التقليدية للتاريخ بسبب الصراعات جعلتها تبدأ رواية التاريخ من اليونان وتلخص آسيا كلها في سطر واحد. إنه يرى أنه "لم يعد مجرد غلطة علمية، بل ربما كان إخفاقاً ذريعاً في تصوير الواقع ونقصاً فاضحاً في ذكائنا" (مقدمة كتاب قصة الحضارة). هذا الرأي الشجاع الصائب يتفق مع معطيات الأديان السماوية حيث شهد الشرق نزول الوحي وتعليم القيم، وتعمير الحياة بالعلم والإيمان.

إن ما خلص إليه ديورانت فيما سبق وجد طريقه عند بعض المبرزين الغربيين. لقد توصل بعض الباحثين المحدثين من مثل جورج جيمس إلى أن المصريين الأوائل - وليس اليونان - هم مصدر الإشعاع التربوي في التاريخ الإنساني وأن سقراط وأفلاطون وأرسطو نقلوا إنتاج المصريين ووضعوه في كتبهم (James, 1992).

وتطرق ديورانت إلى قضية نهاية الحضارات فقال "ما سبب انهيار هذه الحضارات القديمة الكثيرة؟ وقد أجاب فولني على هذا السؤال بقوله إنها انهارت بسبب الجهل المبعوث في شعوب هذه الحضارات بفعل الأديان الغيبية التي تدعمها حكومات استبدادية، وبسبب صعوبة نقل المعرفة من جيل إلى جيل. والآن وقد فقدت هذه العقائد الخرافية أساسها، ويسرت الطباعة حفظ المعرفة وانتقال العناصر الحضارية، فإن على البشر أن يأملوا في بناء ثقافات (حضارات) دائمة قائمة على نظم أخلاقية تفضي إلى امتداد سيطرة الإنسان على نزعاته غير الاجتماعية وتساعد على التعاون والوحدة خاصة وأن المعرفة قادرة الآن على التطور والانتشار" (ج ٤٣، ص ٣٠١).

طرح ديورانت سؤالاً في بداية كتابه *أبطال من التاريخ*؛ ما هي الحضارة؟ وختم إجابته بأنه "نستمد القوة والتشجيع من منجزات الماضي وروائع تراثنا البهي إن الحضارة في حس ديورانت قصة رائعة عن نساء نبيلات ورجال عظام (ص ٢٢). وليس من قبيل الاستطراد أو التكرار ربط قول ديورانت بعبارة الجبرتي في مقدمة كتابه *عجائب الآثار في التراجم والأخبار* عندما أكد على الغرض من علم التاريخ "الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هي وكيف كانت وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بما وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تغلبات الزمن ليحترز العاقل عن مثل أحوال الهالكين من الأمم المذكورة. ويستجلب خيار أفعالهم ويتجنب سوء أقوالهم ويُرهد في الفاني ويجتهد في طلب الباقي". الحضارة ثمرة سعي إنساني، واجتهاد مستمر، وإبداع متميز.

المحور الثاني: أبرز الخصائص التربوية للحضارات

ما أبرز الخصائص التربوية للحضارات الإنسانية من منظور ول ديورانت؟

تطرق ديورانت في قصة الحضارة للشرق الأدنى فتناول حياة السومريين حيث كان الكهنة يعلمون الناس العلوم ويلقونهم الأساطير. ويخلص ديورانت إلى أن "الكتابة أروع ما خلفه السومريون، ويبدو هذا الفن عندهم فناً عظيم الرقي صالحاً للتعبير عن الأفكار المعقدة في التجارة والشعر والدين. .. ويخلقوا من هذه كلها حضارة لم يكن القلم فيها أقل قوة من السيف" (ص ج ٢ ص ٣٤). وكانت تلحق بمعظم الهياكل مدارس يعلم فيها الكهنة الأولاد والبنات الخط والحساب، ويغرسون في نفوسهم مبادئ الوطنية والصلاح، ويعدون بعضهم للمهنة العليا مهنة الكتابة. ولقد بقيت لنا من أيامهم الألواح المدرسية وعليها جداول للضرب والقسمة، والجذور التربيعية والتكعيبية، ومسائل في الهندسة التطبيقية. ويستدل من أحد الألواح المحتوية على خلاصة لتاريخ الإنسان الطبيعي وما كان يتلقاه أطفال ذلك العهد من هذا العلم. فقد جاء في هذا اللوح: "إن الإنسان في أول خلقه لم يكن يعرف شيئاً عن خبز يؤكل أو ثياب تلبس، فكان الناس يمشون منكبين على وجوههم" (ج ٢، ص ٣١). من منظور ديني لم يكن الإنسان همجياً بل بدأت الحياة عندما زود الله الإنسان بما يحتاجه من علم وعقيدة وعبادة. إن عرض ديورانت يتجه نحو الفكر الدارويني أكثر من التفسير الديني.

وفي خضم الحديث عن إسهامات الحضارات تتألق الحضارة المصرية في قصة الحضارة. قال ديورانت عن حضارة مصر: وكان مركز المرأة عندهم أرقى من مركزها عند كثير من الأمم في هذه الأيام وليس ثمة شعب قديم أو حديث قد رفع منزلة المرأة مثل ما رفعها المصريون القدماء. فالنقوش تصور النساء يأكلن ويشربن بين الناس، ويقضين ما يحتجنه من المهام في الشوارع من غير رقيب عليهن ولا سلاح بأيديهن، ويمارسن الأعمال الصناعية والتجارية بكامل حريتهن. وكان النساء يمتلكن ويورثن، وقد ارتقت حتشبسوت وكليوباترة عرش مصر، وحكمتا وخربتا كما يحكم الملوك ويخربون (انظر ديورانت، ج ٢ ص ٩٤). وهكذا شاركت المرأة في موكب الحضارة.

يقول سعيد اسماعيل علي (١٩٩٦م) "إن للنساء أثرهن الهام في التربية المصرية القديمة، على أساس أن مركز المرأة ومدى نخصتها هو المقياس لمدى رقي الحضارة وتقدمها ومن واجب التاريخ التربوي إذا أراد أن يعطي صورة صادقة لتربية شعب من الشعوب أن يهتم بدراسة حياة المرأة فيه وأثرها في تربية الأبناء. وهنا نلمس كيف كان المصريون القدماء أول من آمنوا برسالة المرأة في المجتمع فقندروها واعتزوا بها ورفعوا مكانتها وأعطوها حقوقها ومارست واجباتها. كانت المرأة المصرية بمثابة الدم الذي يجري في عروق

البلاد لا تكاد تمس جانبا من جوانب الحياة دون أن تجد للمرأة مكانة فيه فتبوات مناصب الرجال واطلعت بالكثير من التبعات" (ص ١٥٠)؟

وينقل ديورانت وصية تربوية مصرية تحذر الطفل من عقوق والدته وهي وصية تشهد بالحكمة البالغة فتقول "ينبغي لك ألا تنسى أمك فقد حملتك طويلا في حنايا صدرها وكنيت فيها حملا ثقيلاً؛ وبعد أن أتممت شهورك ولدتك. ثم حملتك على كتفها ثلاث سنين طويلا وأرضعتك ثديها في فمك، وغذتك، ولم تشمئز من قذارتك. ولما دخلت المدرسة وتعلمت الكتابة كانت تقف في كل يوم إلى جانب معلمك ومعها الخبز والجمعة [الجمعة من الأشربة وهو نبيذ الشعير] جاءت بهما من البيت" (ج ٢ ص ٩٧). ومن الوصايا المصرية التربوية الخالدة التي يشير لها ديورانت ما جاء في إحدى البرديات: "أفرغ قلبك للعلم وأحبه كما تحب أمك، فلا شيء في العالم يعدل العلم في قيمته". "أما السعادة فلا تكون إلا في توجيه القلب إلى الكتب في النهار والقراءة في الليل". إن الأهرامات وسائر الإبداعات المصرية القديمة هي ثمرة لشجرة وافرة الظلال جذورها حب العلم وتربية الإبداع. ورغم ما سبق فإن المنهج التعليمي القديم قام على العقاب البدني مما أفسد الناشئة أكثر مما أصلحهم. قال ديورانت "وقد جاءت تلك العبارة المنمقة اللفظ في إحدى المخطوطات: "إن للشباب ظهرا، وهو يلتفت للدرس إذا ضرب... لأن أذني الشاب في ظهره". وكتب تلميذ إلى مدرس سابق يقول: "لقد ضربت ظهري، فوصل تعليمك إلى أذني". ومما يدل على أن هذا التدريب الحيواني - كما يرى ديورانت - لم يفلح على الدوام ما جاء في إحدى البرديات التي يأسف فيها مدرس لأن تلاميذه السابقين لا يحبون الكتب بقدر ما يحبون الخمر (ج ٢، ص ١٠٥ - ١٠٦).

كانت النظم في الهند قديما تبيح العقاب الجسدي ومثلها مثل الحضارة المصرية وسائر الحضارات القديمة وكان المعلمون يستخدمون العصا ويصبون الماء البارد على المتعلم. ولا ريب أن التربية الإسلامية ترى أن ضرب الأطفال وسيلة غير مرغوب فيها في الإسلام (عمر، ٢٠٠٠م، ص ٢٢٥، ٢٣٠). وفي الحضارة الصينية "كانت أداة المعلم عصا من الخيزران. وكانت طريقة التعليم الحفظ عن ظهر قلب؛ فكان الأطفال الصغار يواصلون حفظ فلسفة المعلم كونج ويناقشون فيها مدرسهم حتى ترسخ كل كلمة من كلماته في ذاكرتهم وحتى يستقر بعضها في قلوبهم. وكانت الصين تأمل أن يتمكن جميع أبنائها، ومنهم الزراع أنفسهم، بهذه الطريقة القاسية الخالية من اللذة أن يصبحوا فلاسفة وسادة مهذبين، وكان الصبي يخرج من المدرسة ذا علم قليل وإدراك كبير، جاهلا بالحقائق ناضج العقل، وتبين على مر الزمن ما تنطوي عليه هذه الطريقة من عيوب. فقد وجد الغش سبيلا إلى الحكم في الامتحان، وإن كان الغش في الامتحان أو في تقديره يعاقب عليه أحيانا بالإعدام (ديورانت، ج ٤ ص ٢٨٣ - ٢٨٥).

كان كونفوشيوس يُسمى بالمعلم المجلل. توفي والده عندما كان الصبي بعد في الثالثة من عمره، فاضطر كونفوشيوس للعمل بعد دوام المدرسة لإعالة والدته. ولما بلغ العشرين من عمره ، بدأ يشتغل بالتعليم ، واتخذ داره مدرسة له، وكان يتقاضى من تلاميذه ما يستطيعون أداءه من الرسوم المدرسية مهما كانت ضئيلة. وكان تعليمه مثل تعليم سقراط، يتم شفاهاً وليس بواسطة الكتب. تقوم فلسفة كونفوشيوس الأساسية على الحفاظ على الأخلاق والنظام الاجتماعي من خلال نشر التعليم وبمير الإصلاح بسلسلة من التغييرات تبدأ من البحث عن الحقائق ، ثم اكتمال المعارف، ثم تنمية الفكر، ثم تطهير القلب، ثم تهذيب النفس، ثم تنظيم شؤون الأسرة، ثم إصلاح حكم الولاية، ثم استقرار وسعادة الإمبراطورية (ديورانت، ٢٠٠١م، ص ٢٨، ٣٠).

وبسط ديورانت الحديث عن الحضارة اليونانية وتظهر روحها وأعلامها في معظم المجلدات بتجليات متعددة. آمن اليونان أن الإنسان بلا فضيلة يكون أشد من الحيوان وحشية ورجسا (ديورانت، ٢٠٠٤م، ص ٦٩). قدمت الحضارة اليونانية ألمع رواد التربية من مثل أرسطوطاليس الذي "كان في صدر النهار يلقي على الطلاب المنتظمين فيها دروساً في موضوعات راقية، وفي آخره يلقي محاضرات على جماعات من الشعب أقل انتظاماً وأقل رقياً ممن يستمعون إليه في الصباح. وأكبر الظن أن هذه المحاضرات الثانية كانت في البلاغة، والشعر؛ والأخلاق والسياسة، وقد جمع في هذا البناء مكتبة كبيرة، وأنشأ فيه حديقة للحيوان ومتحفاً للتاريخ الطبيعي، وسميت المدرسة فيما بعد، باللوقيون Lyceun، كما سمي الطلاب بالمشائين وسميت فلسفتهم بالمشائية نسبة إلى الماشي المسقوفة (Perptaoui) التي كان أرسطوطاليس يحب أن يسير فيها مع طلابه وهو يحاضرهم. وكان أرسطو يطلب إلى تلاميذه أن يجمعوا المعلومات في الميادين العلمية المختلفة وينسقوها (ديورانت، ص ٢٥٧٠، ديورانت، ٢٠٠١م، ص ١٢٧).

وأشار ديورانت إلى الشاعرة اليونانية (سافو Sappho) فهي أشهر نساء اليونان أجمعين، وكانت بلاد اليونان بأجمعها تعظمها. ومن شدة توقها إلى الحياة المفعمة بالحركة والنشاط أنشأت سافو مدرسة للفتيات، تُعلمهن فيها الشعر والموسيقى والرقص، كانت تلك المدرسة هي أول مدرسة للفتيات في التاريخ كله. ولم تكن تسمى الطالبات فيها تلميذات بل كانت تسميهن الرفيقات (Hetairai) (ديورانت، ص ١٩٠٣، ديورانت، ٢٠٠١م، ص ٨٢). تثبت الشواهد التاريخية في حقل الدراسات الثقافية أن للمرأة إسهامات مرموقة وبالتالي فإن عقلها المبدع لا يقل في قدرته عن عقل الرجل، وإنما الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وسيطرة الرجل وطغيانه هي التي منعت هذه القدرة من الظهور (إمام، ٢٠٠٩م، ص ٢٥٦) بشكل بارز ومستمر في ميادين شتى.

وإذا نظرنا نحو الحركة التربوية عند اليهود فنجد أنه "كانت شريعة اليهود تحتم على كل تلميذ مزاوله حرفة يدوية لأن الدراسة والتعليم الشريف لا يضمنان في حد ذاتهما المعيشة، إن العمل يحفظ للإنسان فضيلته بينما يتحول المتعلم الذي أخفق في تعلم التجارة أو الحرفة إلى التشرذم والاحتياج (ديورانت، ٢٠٠٤م، ص ١٢٢). "وكان أبراهام زاكوتو شخصية عظيمة فذة في مجال العلم عند اليهود في القرن الخامس عشر. وجمع عندما كان يقوم بالتدريس في سلمنقة (١٤٧٣ - ١٤٧٨) كتابه "التقويم الدائم" وقد استعملت جداوله الفلكية، كدليل للملاحة في رحلات فاسكودا" (ج ٢٦، ص ١٧٠). وفي الحضارة اليهودية ظل التلمود عدة قرون أساس التربية اليهودية وجوهرها. وكان الشاب العبراني ينكب عليه سبع ساعات في كل يوم مدى سبع سنين، يتلوه ويثبته في ذاكرته بلسانه وعينه؛ وكان هو الذي يكوّن عقولهم ويشكّل أخلاقهم بما تفرضه دراسته من نظام دقيق، وإن كانت طريقة المناقشة الدينية قد عملت على تضيق أفق العقل اليهودي والحد من حريته (ج ١٤ ص ٣٩).

كتب يوسف زيدان في موقعه على الانترنت عن حقيقة الفلسفة اليهودية: "لم يكن اليهود فيها إلا أداة لتحقيق مآرب غربية لم يقدّم اليهود فكراً ولا فلسفة، ولا فتناً أو أدباً .. بل أحيوا رموز طموحهم الغابر في دولة تمتد من النيل إلى الفرات، فتبتلع أرض العرب؛ ولولا أسلحة غربية، ورداءة عربية؛ ما تمّ لهم من الأمر شيء".

وتناول ديورانت باستفاضة الحضارة النصرانية. لقد عانى العالم النصراني من الاضطهاد الديني لعدة قرون وكان الحرق والقتل علاج المرطقة (ديورانت، ج ٢٥، ص ١٤٩، ١٩٤، ٢٠٠، ٢٢١). كانت محكمة التفتيش الإسبانية تقوم بتفتيش كل مخزن للكتب، وأمرت بإحراق الكتب الموصومة بالمرطقة (ديورانت، ج ٢٥، ص ٢٥٥). أشار كتاب قصة الحضارة إلى محكمة التفتيش ومحاكم التفتيش أكثر من ٢٤٠ مرة وهي مرتبطة بطغيان الكنيسة ودورها بتقليص الحريات، وتقييد الفكر، وتقمع الإبداع العلمي مما انعكس على دوائر التعليم عبر عدة قرون.

وكانت السلطة الدينية تسيطر على أمور التعليم في الأقطار الكاثوليكية والكلمنية. وفي إنجلترا والبلاد اللوثرية كان رجال الدين يديرون معظم التعليم تحت إشراف الدولة. وفي معظم الجامعات تقريباً، كان مطلوباً من المعلمين والطلبة أن يعتنقوا المذهب الرسمي، وكانت الدولة والكنيسة كلتاهما تحد من الحرية الجامعية بدرجة كبيرة. وقضت الخلافات الدينية على الصبغة العلمية للجامعات، فانحصر الطلبة الأسبان في أسبانيا، ولم يعد الطلبة الإنجليز يلتحقون بجامعة باريس. وظلت أكسفورد حتى ١٨٧١ تفرض على طالب الدرجة الجامعية، الموافقة على مواد الكنيسة الرسمية. ومال الفكر الأصيل الخلاق إلى الاختفاء من الجامعات، والتمس ملجأ في الأكاديميات الخاصة والدراسات غير النظامية أو غير النمطية.

وسرعان ما تأسست لاحقا جمعيات ثقافية في إنجلترا وفرنسا وألمانيا بعثت الروح العلمية الملهمه في العلوم ووضعت الأسس الفكرية والتكنولوجية للعالم الحديث (ديورانت، ج ٣٠، ص ٢٣٧).

كانت نظريات رجال الكنيسة بوجه عام معادية للمرأة..... وكان تومس أكويناس، وهو في العادة رسول الرحمة، يتحدث عنها كما يتحدث الرهبان، فينزلها من بعض النواحي منزلة أقل من منزلة الرقيق: إن المرأة خاضعة للرجل لضعف طبيعتها، الجسمية والعقلية معاً (٤١). والرجل مبدأ المرأة ومنتهاها كما أن الله مبدأ كل شيء ومنتهاها... وقد فرض الخضوع على المرأة عملاً بقانون الطبيعة، أما العبد فليس كذلك.. ويجب على الأبناء أن يحبوا آباءهم أكثر مما يحبون أمهاتهم (باختصار، ج ١٦ ص ١٨٧).

عصر التنوير هي النقطة الفارقة والقفرة النوعية في الحضارة الأوربية. كتب ديورانت "لقد بدأت اليقظة بروجر بيكون الذي توفي في عام ١٢٩٤ وكبرت وترعرعت في ليوناردو (١٤٥٢-١٥١٩) وبلغت كمالها في فلك كوبر نيكوس (١٤٧٣-١٥٤٣) وجيليو (١٥٦٤-١٦٤٢) وفي أبحاث جلبرت (١٥٤٤-١٦٠٣) في المغنطيسية والكهربائية وأبحاث فاسيليوس (١٥١٤-١٥٦٤) في علم التشريح وأبحاث هارفي (١٥٧٨-١٦٥٧) في الدورة الدموية. وعندما نمت المعرفة، ضعف الخوف، وضعف تفكير الناس في عبادة المجهول وزاد في محاولة التغلب عليه وارتفعت كل نفس نشيطة بثقة جديدة وتحطمت الحدود". "وقام فرنسيس بيكون أعظم عقل في العصور الحديثة وقرع الجرس الذي جمع العقول والذكاء، وأعلن أن أوربا قد أقبلت على عصر جديد" (ديورانت، ٢٠٠٤م، ص ٨٨).

قام روجر بيكون بالدعوة لتعليم حر ليبرالي وطالب بتمويل البحث العلمي ورفع أجور المعلمين، وتطوير الجامعات (ديورانت، ٢٠٠١م، ص ٣٨٩). "كانت المهمة المميزة للجامعات والأكاديميات والعلماء الإنسانيين في عصر النهضة هي جمع تراث العالم القديم، عالم اليونان والرومان، وترجمته ونقله إلى جيل الشباب في أوربا الحديثة. وقد أنجزت هذه المهمة على وجه رائع، وكان الكشف عن وحي العالم القديم كاملاً" "إن النهضة والإصلاح البروتستنتي هما ينبوعا التاريخ الحديث، والمصدران المتنافسان للتجديد الفكري والخلقي الذي طرأ على الحياة الحديثة." (ديورانت، ج ٢٧، ص ١٢، ٢٥٤).

أبرز فرانسيس بيكون أهمية التجربة والنتيجة التي تميز الفلسفة الانجليزية، والتي بلغت ذروتها في الفلسفة البراجماتية (العملية) وهو المذهب الذي يؤكد على أهمية المبادئ في نتائجها العملية. قرر بيكون في فلسفته التربوية أن المعرفة هي العقل وأن الإنسان لا يشبع من لذة البحث والبحث عن الحقيقة هو حبها وتعشقها. غاية تقدم العلم سيادة الإنسان عبر تعلم قوانين الطبيعة. إن خطأ فلاسفة اليونان الكبير هو أنهم صرفوا وقتاً كبيراً في النواحي النظرية، والقليل من الملاحظة والبحث العلمي، والفكر ينبغي أن يكون مساعداً للملاحظة لا بديلاً لها. وأخيراً انتبه بيكون إلى أن أسباب خطأ الإنسان ناتجة من

أربعة أوهام؛ أوهام القبيلة الناتجة من التسليم وعدم الشك، أوهام الكهف الناتجة من طبيعة الإنسان ومزاجه وعقله وجسمه، وأوهام السوق وهي الناتجة من اجتماع الناس بعضهم ببعض، وأخيراً أوهام المسرح وهي المرتبطة بالنظريات والأدلة الخاطئة المتوارثة. آمن بـيكون أن مزاوله العلم بطريقة علمية ستؤدي إلى اكتشاف وسائل أفضل في البحث. وقبل موته كان مشغولاً بإجراء تجارب عملية سريعة عن حفظ اللحوم في الثلج (ديورانت، ٢٠٠٤م، ص ٩٢، ٩٨، ١٠٤، ١١٢، ١١٥).

نشأ مارتن لوثر المصلح الديني الشهير في بيئة قاسية حيث التعليم بالعصا، والنبرة القوية، والحياة القاسية وفي كبره تحدى صكوك الغفران ورفضها وبدأ في التغيير الجذري بدافع من حب الدين وكسر احتكاره واستغلاله لمنافع شخصية (ديورانت، ٢٠٠١م، ص ٣٣٠، ٣٣٢). وقد أنحى لوثر باللوم على مدارس ذلك العهد الثانوية التي تركز على تعليم اللغات القديمة، وقال إنها تعلم الطالب "من اللاتينية الرديئة ما يكفي لإعداده قسيساً وتمكينه من تلاوة القداش... ومع ذلك يظل طوال حياته جهولاً مسكيناً لا يصلح لشيء" (ديورانت، ج٢٧، ص ٥). ويرى ديورانت أن الإصلاح الديني بداية عصر العقل.

لعب الأدباء دوراً عظيماً في تنمية الثقافة الأوروبية. تعلم لافونتين (١٦٢١ - ١٦٩٥م) عادات العشرات من أنواع الحيوان، وتكهن في تعاطف بغاياتها، وهمومها، وأفكارها، فكان كل ما عليه أن يفعله وهو يكتب أن يجري الكلام على ألسنه هؤلاء الفلاسفة متعددي الأرجل، وأصبح "إنزوبا" [إيسوب قصاص يوناني] آخر مذاًباً بقصصه الخرافية في ذاكرة الملايين. ومن قصص لافونتين "بعد أن أنفقت الجراداة الصيف كله غناء، ألقت نفسها حين أقبل الشتاء مملقة [فقيرة] لا تملك ذبابة ضئيلة ولا دودة حقيرة، فمضت تشكو جوعها لجارتها النملة وتساءلها إن أقرضتها شيئاً من الحب تقفقات به حتى يقبل الموسم الجديد. وقالت "سأرد لك ديني قبل الحصاد، وأقسم على ذلك بدين الحيوان ومصلحته ومبدئه". أما النملة فلم تكن ممن يقرضون، وهذا أقل عيوبها. لذلك قالت للسائلة "وماذا كنت تفعلين في الصيف؟".

ووجدت الروح العلمانية في ألمانيا معبراً عنها في شخص كرستيان توماسيوس فهو "أعظم المعلمين الألمان في جيله. فبعد أن طرد من موطنه في ليبزج لهرققاته، رحل إلى هاله في دولة براندنبورج-بروسيا الناهضة (١٦٩٠)، وأدت محاضراته هناك إلى إنشاء الجامعة، وقد أصبح أشهر أساتذتها، والمناضل الذي جعل منها أول جامعة "حديثه". وقد هزأ بالسكولاستيه [مذاهب العصور الوسطى]، وأحل الألمانية محل اللاتينية لغة للتعليم، وأصدر مجلة ألمانية، وأدخل البرامج العلمية في المنهج، وكفاح في سبيل حرية المعلمين والطلاب في التفكير. ولقبه فردريك الأكبر أبا التنوير الألماني" (ديورانت ج٣٣، ص ١٦٩).

ويمضي ديورانت ليقدم ومضات عن الحركة التعليمية الأوروبية فيقول "كان بين الصراعات الكثيرة الأساسية التي شهدتها فرنسا في القرن الثامن عشر، محاولة الكنيسة الاحتفاظ بسيطرتها على التعليم، إلى جانب محاولة الفلاسفة وغيرهم إنهاء هذه السيطرة والقضاء عليها. وبلغ الصراع ذروته بطرد اليسوعيين من فرنسا في ١٧٦٢، وتأميم المدارس الفرنسية، وغلبة التعليم العلماني في الثورة الفرنسية" (ج ٣٦، ص ٦٢).

وبعد الثورة الفرنسية تولت الدولة في فرنسا "الإشراف على التعليم بدلاً من الكنيسة، وعمدت الدولة إلى أن تجعل من هذه المدارس مراكز تربوية لتنمية الذكاء وتعميق الأخلاق، وترسيخ الوطنية. وقامت بإعادة تنظيم التعليم حتى يحدث "التقدم الدائم المستمر في مجال التنوير ... فالتعليم لا بد أن يكون مباحاً للفرنسيين كلهم وعلى قدم المساواة..... إننا نعول عليه كثيراً ليكون متمشياً مع طبيعة حكومتنا ومبادئ جمهوريتنا الراقية" وفي سنة ١٧٩٣ م صدر بيان يجعل التعليم الابتدائي مجانياً وإلزامياً للأولاد كلهم. أما البنات فكان من المتوقع أن تعلمهن أمهاتهن أو يتلقون التعليم في الأديرة أو على يد معلمين خصوصيين (ج ٤٣، ص ٢٧٢).

كانت فرنسا "قد ملت الفكر الكلاسيكي والانضباط الأرستقراطي. فأتاح تمجيد روسو للوجدان تحراً للغرائز المكبوتة، والعاطفة المكظومة، والأفراد والطبقات المظلومة. وأصبحت "الاعترافات" كتاب الوجدان المقدس كما كانت "الموسوعة" العهد الجديد لعصر العقل. ولا يعني هذا أن روسو رفض العقل، فهو على العكس وصفه بأنه عطية إلهية، وقبله حكماً نهائياً، ولكنه أحس أن نوره البارد في حاجة إلى دفء القلب ليبلهم العمل والعظمة والفضيلة. وبعد نشر "أميل" أرضعت الأمهات الفرنسيات أطفالهن، حتى في دار الأوبرا، وفيما بين الألمان. وأطلق الطفل من سجن أقمطته، وقام أبواه على تربيته بأنفسهم. فإذا التحق بالمدرسة حظي بالتعليم "على طريقة روسو" في سويسرا أكثر منه في فرنسا، ولما كانت النظرة للإنسان الآن تعدده خيراً بطبيعته، فإن التلميذ وجب أن ينظر إليه لا على أنه عفريت صغير مشاكس بل ملاك رغباته هي صوت الله. ولم تعد حواسه تدان لأنها أدوات الشيطان، بل تعد أبواباً للخبرات المنيرة ولمئات المباحج البريئة. ووفقاً للنظرة الجديدة لا تعود حجرات الدرس سجوناً. أما التعليم فيجب أن يجعل طبيعياً وساراً بتفسيح حب الاستطلاع والقوى الفطرية وتشجيعها. وأما حشو الذاكرة بالحقائق، وحنق الفكر بالعقائد القطعية، فيجب أن يحل محلها التدريب على فنون الإدراك الحسي، والحساب، والتفكير. ويجب أن يتعلم الأطفال من الأشياء لا من الكتب كلما أمكن - من النبات في الحقل، والصخور في التربة، والغيوم والنجوم في السماء. وقد حفز التحمس لأفكار روسو التربوية بستلوتزي وماريا مونتسوري في إيطاليا، وجون ديوي في أمريكا؛ و "التربية التقدمية" هي جزء من تراث روسو، وقد نشأ فروبل نظام رياض الأطفال في ألمانيا، ومنها انتشر في العالم الغربي طويلاً وعرضاً (ج ٤٢، ص ٣٧٤).

ومن هنا ندرك أن نقل التربية من النظرية إلى التطبيق قفز بأنظمة التعليم وصنع منها قوة حضارية بعد محاض عسير.

المحور الثالث: الحضارة الإسلامية

ما أبرز سمات الحضارة الإسلامية من منظور ويل ديورانت؟

تعد الحضارة العربية الإسلامية جزءاً مهماً من المسيرة الإنسانية الخصبية ورغم الخصومات الفكرية للمستشرقين مع الإسلام نفسه إلا أن بعضهم كشف عن جوانب العظمة لحضارتنا رغم إغفالهم للكثير منها ولا شك أن الإحاطة تعجيز. وفي سياق المقارنة بين الحضارات وبلغت حاسمة يبين ديورانت تفوق الثقافة الإسلامية في القرون الوسطى. فمن منظوره كان الفن والثقافة في بلاد الإسلام أعم وأوسع انتشاراً بين الناس مما كانا في البلاد المسيحية في العصور الوسطى؛ فقد كان الملوك أنفسهم خطاطين، وتجاراً، وكانوا أطباء، وكان في مقدورهم أن يكونوا فلاسفة (ج ١٣ ص ٣٨٢) نظراً لقوة إعدادهم، وسعة فكرهم.

أدرك ديورانت أن الإسلام يحث على العلم (ج ١٣ ص ١٦٧)، ما يوحى برؤية موفقة لأسس الحضارة الإسلامية ومنابع المعرفة فيها. يعتقد ديورانت أن الكثير من المخطوطات التراثية الإسلامية إما مفقودة أو مخطوطة والشواهد على ذلك كثيرة. قال ديورانت "وإن مما يؤسف له أن يكون علمنا بتلك القرون الثلاثة (٧٥٠-١٠٥٠) التي ازدهر فيها التفكير الإسلامي ناقصاً كل النقص. ويرجع سبب ذلك إلى أن آلافاً من المخطوطات العربية في العلوم، والآداب، والفلسفة لا تزال مخبوءة في مكاتب العالم الإسلامي. ففي اسطنبول وحدها ثلاثون من مكاتب المساجد، لم يرَ الضوء من مخطوطاتها إلا النزر اليسير، وفي القاهرة، ودمشق، والموصل، وبغداد ودلهي، مجموعات ضخمة، لم يعرَ أحد حتى يوضع فهارس لها (ج ١٣ ص ٢١٢).

لا شك أن بعض الأحداث التاريخية لا يمكن نسيانها ولعبت دوراً كبيراً في دخول الأمة إلى منحى تاريخي أعاقها من إتمام مسيرتها الحضارية. لقد اخترق هولوكو حفيد جنكيز خان البلدان وأحرق المدن الإسلامية ومزّقها الواحدة تلو الأخرى وهجم على بغداد عاصمة العلم سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م في عهد المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين وكان فيها ٣٦ مكتبة عامّة. ذكر ول ديورانت أن هولوكو وجنوده "أعملوا فيها السلب والنهب والقتل أربعين يوماً كاملة فتكوا فيها بثمانمائة ألف من أهلها على حدّ قول بعض المؤرخين. وهلك في هذه المذبحة الشاملة آلاف من الطُّلاب والعلماء والشُّعراء... ولسنا نعرف أن حضارة من الحضارات في التاريخ كله قد عانت من التدمير الفجائي ما عانتها الحضارة الإسلامية على أيدي المغول" (ص ٣١٣١). وهذه شهادة مهمة تتسم بالدقة والموضوعية.

وفي باب انتقال المعارف ونشأة اللغات القومية أفرد ول ديورنت فصلاً كاملاً عن عالم الكتب والترجمة والمدارس في العصور الوسطى ودور الحضارة الإسلامية في ذلك (ج ١٦ ص ٨ - ٢٧). أشار ديورنت في عشرات المرات إلى ابن رشد ومحاولته التوفيق بين الدين والفلسفة وجهوده الرائعة في شرح كتب سقراط (ديورنت، ص ٤٨٠٦) والمعروف أن شروح ابن رشد كانت معتمدة عند المعلمين في باريس وجامعات إيطاليا (أوليري، ١٩٨٢م، ص ٢٤٩). وكتابا الشفاء والقانون لابن سينا هما أرقى ما وصل إليه التفكير الفلسفي في العصور الوسطى، وهما من أعظم البحوث في تاريخ العقل الإنساني (ديورنت، ج ١٣ ص ٢١١، ج ٢٧، ص ١٥٧). وتحدث ديورنت عن الحافظ الشيرازي وعشقه للحرية (ج ٢٦، ص ٣٤) ولا زال الفكر الغربي شديد الإعجاب وكثير الانتفاع من شعر وحكمة الشيرازي (كوفي، ٢٠٠٦م، ص ٧٤، ٣٨٢).

ولكن الاسم اللامع في كتابة التاريخ في القرن الرابع عشر هو عبد الرحمن بن خلدون في تصور ديورنت. فهنا نجد رجلاً ذا وزن وقيمة حتى في أعين أهل الغرب رجلاً عركته التجارب والسياسة وفن الحكم الذي مارسه عملياً، وهو مع ذلك حسن الاطلاع على الفن والأدب والعلوم والفلسفة في عصره، يكاد يحيط بالجوانب الإسلامية في هذا كله في "تاريخ للعالم". وإن مولد مثل هذا الرجل في تونس (١٣٣٢) وارتفاع مكانته هناك، ليوحيان إلينا بأن ثقافة شمالي أفريقية لم تكن مجرد صدى للإسلام في آسيا، بل كان لها طابع وحيوية خاصتان بها (ج ٢٦، ص ٧٦). "والمقدمة واحدة من الروائع في الأدب الإسلامي وفي فلسفة التاريخ، فهي إنتاج "حديث" إلى درجة مذهلة لعقلية عاشت في العصور الوسطى. ويرى ابن خلدون أن التاريخ "فرع هام من الفلسفة"، وينظر نظرة عريضة واسعة إلى مهمة المؤرخ" (ديورنت، ج ٢٦، ص ٧٨). وبعد أن ينتقد ديورنت بعض أفكار ابن خلدون لم يسعه إلا أن يقرر في الختام أنه "ولكي تستعيد تقديرتنا وإجلالنا لابن خلدون، حري بنا أن نتساءل فقط عن أي عمل مسيحي في القرن الرابع عشر يمكن أن يضارع "المقدمة"... ومهما يكن من أمر فقد أحس ابن خلدون، وله بعض الحق، أنه خلق علم الاجتماع. إننا لا نستطيع، في أي أدب كان قبل القرن الثامن عشر، العثور على فلسفة للتاريخ، أو على منهج لعلم الاجتماع، يمكن أن يباري في قوته ومداه ودقة تحليله منهج ابن خلدون. إن رائد فلسفة التاريخ في عصرنا قد حكم على مقدمة ابن خلدون بأنها أعظم تأليف من نوعه أنتجه عقل بعد في أي زمان أو مكان. وقد يقارن به كتاب هيربرت سبنسر "مبادئ علم الاجتماع" ١٨٧٦-١٨٩٦، ولكن كان لسبنسر معاونون كثيرون... أهم مؤلف تاريخي في العصور الوسطى" هو مقدمة ابن خلدون" (ج ٢٦، ص ٨٥).

من الغريب أن هذه الاعترافات الثمينة لديورنت والمنثورة في كتابه قصة الحضارة لا نجد لها بارزة في كتابيه قصة الفلسفة وأبطال من التاريخ الذي هو آخر كتاب لديورنت.

وصف ديورانت جانباً من عبقرية وعظمة وضخامة الحضارة الإسلامية، ووضح ازدهار التعليم والثقافة والآداب وأشار إلى أن رشيد الدين المولود سنة ١٢٤٧ في همذان، شيد في إحدى الضواحي شرقي تبريز حياً أسماه "ربع الرشيد"، وهو مركز جامعي فسيح. وفي رسالة له محفوظة في مكتبة كمبردج يصف هذا المركز فيقول: " شيدت فيها الحمامات الصحية والحدائق الغناء والمخازن والمطاحن ومصانع النسيج والورق. ونزح الناس من كل حدب وصوب إلى هذا الربع، وكان من بينهم مائتان من قراء القرآن. وزودنا بالمساكن ٤٠٠ آخرين من العلماء، في شارع سمي "شارع العلماء". وأجرينا على هؤلاء جميعاً رواتب يومية وأرزاقاً ومخصصات سنوية للملابس، ومبالغ من المال لشراء الصابون والحلوى. وأتينا كذلك بألف طالب، وأصدرنا الأوامر بصرف الأرزاق والمخصصات اليومية لهم، حتى يتفرغوا في راحة وأمان، لطلب العلم ونفع الناس به. كما حددنا كذلك، من الطلبة، وكم منهم يدرسون مع كل أستاذ أو معلم (ديورانت، ج ٢٦، ٣١، باختصار).

وتناول ديورانت الحضارة العثمانية فقال " كانت تهيئة السبل لتحصيل العلوم والمعارف أو نقلهما هي أضعف حلقة في الحضارة العثمانية. وكان التعليم الشعبي مهملاً بصفة عامة. وضآلة العلم والمعرفة أمر خطير. وكان التعليم على الأغلب مقصوراً على الطلاب الذين يقصدون إلى دراسة الترتية أو القانون أو الإدارة، وكانت مناهجها طويلة قاسية. وقضى محمد الثاني وسليمان وقتاً طويلاً في إعادة تنظيم المدارس وتحسينها. ونافس الوزراء سادتهم السلاطين في إغداق الهبات على هذه الكليات أو المدارس الملحقة بالمساجد. ونعم المدرسون في هذه المعاهد بمراكز اجتماعية ومالية أعلى من نظرائهم في العالم المسيحي اللاتيني. وكانت محاضراتهم تنصب رسمياً على دراسة القرآن، ولكنهم سعوا كذلك إلى دراسة الآداب والرياضيات والفلسفة، ولكن خريجهم، ولو أنهم كانوا أكثر تحصيلاً في فروع الدين منهم في العلوم، ساروا جنباً إلى جنب مع الغرب في الهندسة وفن الحكم" (ج ٢٦، ص ١٢٠-١٢١).

والتعليم عند المسلمين في القرن الثامن عشر في كتابات ديورانت هيمن "عليه رجال الدين الذين آمنوا بأن أضمن سبيل لتكوين المواطنين الصالحين أو الأتباع الأوفياء القبيلة هي ترويض الخلق لا تحرير الفكر. وكان رجال الدين قد انتصروا في معركتهم مع العلماء والفلاسفة والمؤرخين الذين ازدهروا أيام الإسلام الوسيط، فانتكس الفلك إلى التنجيم، والكيمياء إلى الخيمياء، والطب إلى السحر، والتاريخ إلى الأساطير. ولكن في كثير من المسلمين حلت المحكمة الصامتة محل التعليم والتفقه في المعرفة. وكما قال داوتي الحكيم البليغ: "إن العرب والترك، الذين كتبهم هي وجوه الرجال... والذين شروحوهم وتفاسيروهم هي الأقوال المأثورة السائرة ومئات الأمثال الحكيمة القديمة السائدة في عالم الشرق، هؤلاء قريون من إدراك الحقائق الإنسانية. إنهم شيوخ راسخون في الحكمة وهم لا يزالون شباباً، ولا ينسون بعد ذلك إلا القليل مما تعلموا". وقد أكد ورتلي مونتجيو في خطاب كتبه عام ١٧١٧ لأديسون أن "الرجال ذوي

الشأن من الأتراك يبدون في أحاديثهم مهذبين لا يقلون تحضراً عن أي رجال التقيت بهم في إيطاليا"،
أجل فالحكمة ليس لها وطن" (ج ٤١، ص ٧).

الكثير من عبارات ديورانت قدمت للقارئ تألق الحضارة الإسلامية في فضاء التاريخ الإنساني ومن ذلك قوله "إن قيام الحضارة الإسلامية وضمحلها لمن الظواهر الكبرى في التاريخ، لقد ظل الإسلام خمسة قرون من عام ٧٠٠ إلى عام ١٢٠٠ يتزعم العالم كله في القوة والنظام وبسطة الملك وجميع الطبائع والأخلاق وفي ارتفاع مستوى الحياة وفي التشريع الإنساني الرحيم والتسامح الديني والآداب والبحث العلمي والعلوم والطب والفلسفة" (ص ٣١٣٢).

معظم النقاط التي تناولها ديورانت عن التربية الإسلامية (حب العلم، المكتبات، ابن خلدون) ذكرها عموماً الباحث ري ميسغ وزميله دويت ألن (Ray Muessig & Dwight Allen, 1962) ونجد صداها في دراسة دونالد هل (Hill, 1994) وتتضمن بعض تلك الكتابات الإشادة بمعطيات الحضارة الإسلامية إشادة منقطعة النظير. يرى الكثير من الغربيين أن أوروبا ولت وجهها شطر المراكز الإسلامية التعليمية لكي تستعيد الكثير من تراثها الضائع ولكي تتعلم من تقدم المسلمين في الرياضيات والطب والعلوم (إسبوزيتو، ٢٠٠٢م، ص ٥٦، رمضان وجامع، ١٩٩٥م، سعد، ١٩٩٩م، ص ٢٦١).

لا ريب أن جهد ول ديورانت - شأنه شأن أي جهد بشري- يتضمن سقطات يدركها القارئ اللبيب والباحث الناقد. إنه يورد أحيانا الغرائب المجافية للصواب من مثل قوله "وكما أطلق البروتستانت على مذهبهم اسم "الدين الحق"، اتخذ الشيعة اسم "المؤمنين" (المعتقدون الحقيقيون). ولا يؤاكل المتمسك بمذهبه سنياً أبداً، وإذا وقع ظل مسيحي على طعام شيعي وجب أن ينبذ الطعام على أنه دنس" (ج ٢٦، ٩٣). وكذلك من الأفكار الركيكة قوله "وينفخ الإسلام في الناس روح الشجاعة المفعمة بالأمل زمن الحرب، ولكنه كان يغرس في نفوسهم وقت السلم روح التسليم بالقضاء والقدر التي تنبسط من عزائمهم ... " (ج ٣٠، ص ١٣٦).

ويقول ديورانت "يحكى أن الخليفة عمر [بن الخطاب رضي الله عنه] حين سُئل في أمر مكتبة الإسكندرية وما يفعله بها أجاب: "وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامه" (ج ٣٩، ص ٤٢). يزعم كثير من المستشرقين أن عمرو بن العاص هو الذي أحرق الإسكندرية بعد أن استأذن عمر بن الخطاب، وهذا الزعم مرفوض لأن عمرو بن العاص حين دخل الإسكندرية في العام ٦٤٠ ميلادية لم يجد أثراً للمكتبة التي كانت قد هدمت قبل دخوله بثلاثمائة عام. إن التاريخ الإنساني لم يسجل حالة تدمير مكتبة أو حرق لمكتبة على يد الفاتحين المسلمين على مر العصور، ولو كانوا يفعلون ذلك لانتهدت

حضارات وثقافات كان لهم الفضل في الحفاظ عليها. إن الحرق كان في زمن يوليوس قيصر (آغا، ٢٠٠٩م، النشمي، ٢٠٠٦م، ص ٩).

وفي المقابل نجد ديورانت بدكاء ينفي عن الحياة الإسلامية ما أصاب الغرب من بلاء محاكم التفتيش فيقول عن الدولة العثمانية "وقام بين الحين والحين من ذوى التفكير الحر من يتحدث بصراحة بالغة، ولكن نادراً ما كان يحكم عليه بالإعدام" (ج ٢٦، ص ١١٠). يتصف حكم المسلمين كما يقرر ديورانت بالتسامح مع الأديان (٢٠٠٤م، ص ١١٧). وبثقة يقول ديورانت عن سماحة العالم الإسلامي "تمتع المسيحيون في العالم الإسلامي بتسامح ديني ما كان حاكم مسيحي ليحلم بمنحه للمسلمين في أي بلد مسيحي. من ذلك، على سبيل المثال، أن المسلمين كان لهم في أزمير ١٥ مسجداً، وللمسيحيين ٧ كنائس ولليهود ٧ معابد. وكانت السلطات في تركيا والبلقان تتولى حماية الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية ضد أي تحرش أو إزعاج أثناء العبادة" (ج ٣٠، ص ١٣٦).

المحور الرابع: تنمية الأسرة

كيف ساهم الفكر التربوي عبر العصور في تنمية الأسرة؟

يقول كنفوشوس "إذا قام البيت على أساس سليم أمن العالم وسلم" (ديورانت، ج ٤ ص ٢٦٥). وقال فرانسيس بيكون "يكبر الإنسان سبع سنوات في أفكاره في اليوم الأول من زواجه" (ديورانت، ٢٠٠٤م، ص ٩٥) لأن يتعلم حقيقة حمل المسؤولية ويستشعر ذلك. لقد أحس جان جاك روسو بعد سلسلة من الأخطاء الفادحة في حياته الأسرية "أن الرجل الذي يستطيع تربية أولاده تحت بصره رجل سعيد جداً. وكتب إلى أم شابة يقول: إن أجمل أسلوب في الحياة يمكن أن يوجد هو أسلوب الأسرة.. فما من شيء يندمج معنا بأشد وأثبت من أسرتنا وأبنائنا" (ديورانت، ج ٤٢، ص ٣٦٤). ورغم تغير الأحوال وتبدل الزمان تظل الأسرة أساس المجتمع والوحدة الرئيسة له. هذا أمر لازم، وحقيقة لا تنفصم عن الواقع ولا تنفصل عن المجتمع.

سئل ديورانت أن يلخص الحضارة فقال: "هي نهر ذو ضفتين يمتلئ أحياناً بدماء الناس الذين يقتلون ويسرقون ويصيحون ويفعلون أشياء يسجلها المؤرخون عادة. ولكننا نجد على الضفتين في الوقت ذاته أناساً لا يحس بهم أحد وهم بينون البيوت، ويمارسون الحب والجنس، ويربون الأطفال، ويتغنون بالأغاني، وينظمون الشعر، بل ينحتون التماثيل. وقصة الحضارة هي قصة ما حدث على الضفتين. ولكن المؤرخين متشائمون، لأنهم يتجاهلون الضفاف ويتعلقون بالنهر" (درويش، ٢٠٠٨م).

كانت نتائج الثورة الصناعية ضخمة لا سيما على بنية الأسرة. لاحظ ديورانت أفول شمس الأسرة فقال "كانت الأسرة في النظام الزراعي هي وحدة الإنتاج الاقتصادي كما كانت وحدة الاستمرار العرقي

والنظام الاجتماعي؛ وكانت تعمل جماعة على الأرض خاضعة للنظام الذي يفرضه الأبوان والفصول؛ وقد علمت التعاون وشكلت الخلق. أما النزعة الصناعية فقد جعلت الفرد والشركة هما وحدتي الإنتاج، وفقد الأبوان والأسرة الأساس الاقتصادي لسلطتهما ووظيفتهما الأخلاقية. وإذا أصبح تشغيل الأطفال غير مجز في المدن لم يعد الأطفال نفع اقتصادي. وانتشر ضبط النسل. وإذا حرر تحديد الأسرة والأجهزة الميكانيكية المرأة من هموم الأمومة وواجبات البيت، فقد جذبت إلى المصانع والمكاتب؛ وكان التحرير معناه التصنيع".

وراح ديورانت يصف التغييرات التي أصابت وظيفة الأسرة ويحللها؛ "وإذا استغرق الأبناء فترة أطول حتى يصلوا إلى الاعتماد على ذواتهم اقتصادياً فإن الفترة التي طالت بين النضج البيولوجي والاقتصادي جعلت العفة السابقة للزواج أشق، وحطمت الناموس الأخلاقي الذي كان ممكناً في المزرعة بفضل النضج الاقتصادي المبكر، والزواج المبكر، والعقوبات الدينية ووجدت المجتمعات الصناعية نفسها منساقعة على غير هدى في فترة فاقدة لحس المسؤولية الأخلاقية، بين ناموس أخلاقي يحتضر وآخر جديد لم يتشكل بعد" (ديورانت، ج ٤٢، ص ٢٩-٣٣). هذا التحليل الاجتماعي من منظور اقتصادي للانتكاسة الأخلاقية يوحي بحرص ديورانت على وصف وتعليل الظواهر الاجتماعية. ولعل تنامي الزواج العربي، والمسيار، والفرند فضلاً عن السلوكيات الجنسية الأخرى بين الشباب وطلبة الجامعات في المجتمعات العربية يدل على الضيق الاقتصادي أو تعقد الحياة وصعوبة الزواج المبكر ونشوء توترات اجتماعية جديدة في المجتمعات المحافظة التي بدأت الأخلاقيات فيها تتبدل وتأخذ مساحات أكبر من الحرية ولم يعد الدين فيها الموجه الأساس للسلوك كما كان الوضع في بعض الفترات الماضية. إن تحمل التبعات الزوجية في وقت مبكر أحسن للزوجين وآمن للمجتمع، وكان ميسوراً قديماً وأصبح شاقاً حديثاً. ومهما يكن الأمر فإن العلاقة بين الأخلاق والاقتصاد علاقة وثيقة من جملة وجوه انتبه لها ديورانت في تحليلاته وهو يتناول الأحداث التاريخية بالتفسير والتعليل على نحو بارع فلم يكن ديورانت مؤرخاً يقدم الحقائق التاريخية فحسب بل كان عالماً اجتماعياً وفيلسوفاً واقعياً يسعى لفهم السلوك الاجتماعي في سياقه الاقتصادي والديني والنفسي والثقافي مما جعل ديورانت بهذا الصنيع صاحب منهج تقدمي يتسم بالشمول في معالجة القضايا وهو المنهج الذي يحتاج إليه الباحث في دراساته المعمقة لسبر غور التغييرات الفردية والاجتماعية على حد سواء.

وإذا عرجنا إلى تربية الطفل فيكشف ول ديورنت عن طرف من التربية القديمة قائلاً "والطفولة في الجماعة البدائية تتعرض لكثير من الأخطار والأمراض، ونسبة الوفاة فيهم عالية؛ والشباب في تلك الجماعة قصير الأمد، لأن الزواج كان يبدأ في سن مبكرة فتبدأ التبعات الزوجية، وسرعان ما يضيع الفرد في ثقال المهام التي يكلف بها من تزويد الجماعة بزادها والدفاع عنها. فالنساء يُدويهن حمل الأطفال والرجال يدويهم تزويد هؤلاء الأطفال بضرورات الحياة حتى إذا ما فرغ الأبوان من تربية الطفل الأخير،

نفذت قواهما فلم يكن ثمة مجال لإبراز الشخص لفرديته، لا في أول الحياة ولا في نهايتها؛ فالفردية- كالحرية- ترف جاءت به مدنية إذ لم يحدث إلا في فجر التاريخ أن تحرر من ريقه الجوع والنسل والقتال عدد من الرجال والنساء يكفي لخلق القيم الروحية للفراغ والثقافة والفن (ج ١ ص ٨٩).

وانتبه ديورانت إلى أن القدماء تمسكوا "بنظمتهم في تربية أطفالهم وطبقوها حتى سن النضوج، وآمنوا بأنهم يستطيعون بوساطة الشعر أن يهدبوا أية فترة من فترات الحياة عند الناشئ؛ أما اليوم، وبعد أن مرّ هذا الزمن الطويل، أصبح التاريخ وأصبحت الفلسفة في مقدمة ما يربى به الناشئ؛ مع أن الفلسفة لا تصلح إلا للقليل، بينما الشعر أصلح منها للشعب بصفة عامة" (ج ١ ص ٨١). استنادا لمعطيات الفكر التربوي، قدم المربون مناهج كثيرة لتربية الناشئة ومن الصعب انتقاء وسيلة واحدة وتعميمها على الجميع كأمنع وسيلة بل لا زال الباب مفتوحا على مصراعيه للابتكار والإضافة والانتقاء في ظل مراعاة الفروق الفردية، والمستجدات العصرية، والطموحات المجتمعية.

ومن المنظور الاجتماعي، يُرجح ديورانت أن تكون المرأة هي التي طورت الزراعة وأوجدت التربة الأولى للحضارة حيث أن الرجل قبل ذلك كان يجول بعيدا عن منزله يطارد الحيوانات بحثا عن الطعام (ديورانت، ٢٠٠١م، ص ١٦) وعليه فهو يرى أن إن معظم التقدم الذي أصاب الحياة الاقتصادية في المجتمع البدائي كان يعزى للمرأة أكثر مما يعزى للرجل، فبينما ظل الرجل قروناً مستمسكاً بأساليبه القديمة من صيد ورعي، كانت هي تطور الزراعة على مقربة من محال السكنى، وتباشر باجتهاد تلك الفنون المنزلية التي أصبحت فيما بعد أهم ما يعرف الإنسان من صناعات (ديورانت، ص ٧١). ولعل فكرة الإيمان بأن الرجل والمرأة منذ فجر التاريخ شريكان في صنع الحضارة أقرب للدقة والموضوعية فالتكامل لا التفاضل أساس فهم التاريخ الإنساني لا سيما بين علاقة الجنسين ووظيفتهما. آدم وحواء يتمم أحدهما دور الآخر والتفاضل -لصالح الذكور أو الأنثى- قضية عصرية تختزل الكثير من التحيزات التاريخية المصطنعة إن التحيز ضد المرأة ولد تحيزا مطلقا لصالحها وكلاهما يجانب الصواب.

كشفت ديورانت عن ظاهرة تقليل شأن المرأة ونعتها بالعبارات اللاذعة عند كثير من الأمم وهذا بلاء أصاب أيضا الكثير من الفلاسفة من مثل شوبنهاور وسبنسر (ديورانت، ٢٠٠٤م، ص ٢٦٧، ٢٧٢، ٣٠١، ديورانت ج ٢٦، ص ٢، ١١٦). ومن المؤسف أن هذا البلاء أصاب بلاد الإسلام فكان من أسرار تأخر العرب والمسلمين تسلل تلك المفاهيم الاجتماعية كما يذهب محمد الغزالي (٢٠٠٠م، ص ٢٥-٣٠). قال محمد الغزالي في كتابه سر تأخر العرب والمسلمين "وقد أخذ المسلمون في تجهيل النساء وإهمالهن، حتى أصبحن في العصور الأخيرة من سقط المتاع، وأصبحت الأنوثة رمز الهوان، وتفاهة الشأن"، "وأكد أجزم بأن سوء التربية في قرون مضت إلى يوم الناس هذا يرجع إلى جهالة النساء". رغم

أن الإسلام أعطى المرأة كامل حقوقها وقفز بالمسلمين والمسلمات قفزات هائلة نحو الرفعة إلا أن البعد عن نبعه سبب خسائر جمة.

أشار ديورانت إلى ماري ولستونكرافت التي قامت بتأليف كتابها المؤذن بعهد جديد حقوق المرأة. رفعت ماري ولستونكرافت Wollstonecraft "عقيرتها مطالبة بتحرير المرأة، وكانت مطالبتها من أقوى المطالبات التي شهدتها حركة تحرير المرأة". وترى ماري أن أفضل "طريق لتحرير المرأة هو اعترافها بأخطائها والتحقق من أن حريتها تعتمد على تثقيف عقلها وسلوكها. وراحت المؤلفة في كتابها تعدد أخطاء النساء في زمانها: نزوعها إلى الضعف والجن مما يغذي دعوى الرجل في التفوق والسيطرة ويُسعده، وإدمان لعب الورق والثروة والقبل والقال والتنجم والتأثر العاطفي والتفاهة والاهتمام الزائد بالملبس والغرور. الطبيعة والموسيقا والشعر والكياسة، كل ذلك يميل إلى جعل النساء مخلوقات للإحساس... وهذا الإحساس أو الشعور إذا ما زاد عن حده أضعف - بشكل طبيعي - قوى النفس الأخرى ومنع الفكر من الوصول إلى المرتبة التي يجب أن يشغلها.. لأن التدرّب على الفهم والاستيعاب - كما تشير لنا الحياة - هو الطريق الوحيد الذي قدّمته لنا الطبيعة لتهدئة عواطفنا وانفعالاتنا ورغباتنا الجنسية. وقد شعرت ماري أن كل هذه الأخطاء تقريباً راجعة إلى عدم المساواة مع الرجل في التعليم". "لقد اعتقدت ماري أن أخطاء النساء راجعة كلها - تقريباً - إلى إنكار حق المرأة في تعليم مساوٍ لتعليم الرجل، وإلى نجاح الرجل في إقناع المرأة بأنها لعبة جنسية قبل الزواج وحلية للزينة وخادمة مطيعة وآلة للإنجاب بعد الزواج" (ديورانت، ج ٤٥، ٥٢، ٥٣).

يهتم المربون اليوم بكتابة الفكر التربوي مع إبراز إسهامات المرأة. كتابات ماري من أقدم الدراسات النسائية العالمية في الفكر التربوي وذات قيمة كبيرة عند الباحثين المعاصرين (Gutek, 2005, p. 196). لا شك أن المرأة شريكة للرجل في صناعة الحضارة ولا يمكن لحضارة أن تبنى على شخص يقفز على قدم واحدة... بل أن تلعب المرأة أدواراً متعددة في حدود استطاعتها لتحقيق النهضة ويتعين تربية الجيل القادم على هذه المعاني (المرأة، ٢٠١٠م، ص ٢٢) مع الحفاظ المستمر على قوة نسيج الأسرة كأساس لسلامة كيان المجتمع من جهة، وسعادة المجتمع من جهة أخرى.

إن معاناة التاريخ تكشف أنه لم يلق تعليم النساء تشجيعاً منصفاً في معظم الشعوب عبر التاريخ الإنساني، لأن كثيراً من الرجال - عن جهل أو عمد - كانوا يرون التعليم خطراً على الأخلاق، وكانوا لا يؤمنون بسلامة عقل المرأة، ولا يعترفون بحقها في المشاركة في عملية التنمية الشاملة. وتلقت قلة قليلة من البنات تعليماً يسيراً لا يزيد عن أبجديات القراءة والكتابة مع قدر جيد من مهارات تدبير المنزل ولا

يمنع هذا الاستنتاج العام من بروز نساء ملكن مواهب رفيعة وقدمن خدمات تاريخية جلييلة من حين لآخر في معظم المجتمعات.

إن إيمان ديورانت بقدررة المرأة الفكرية جعلته يقضي أجمل ساعات العمر وهو يستعين بجود وجهود زوجته في إتمام كتابه قصة الحضارة الذي أخذ في تأليفه ما يقارب من خمسين سنة . إن حياة ديورانت، وجدده وسعيه، وارتباطه الفكري والعاطفي بزوجته وأسرته، من أروع أنواع المشاركة في لذة التعلم والتعليم مدى الحياة بين الزوجين. كتب ديورانت في مرحلة من مراحل كتابه قصة الحضارة: "ولقد كان من الواجب أن نهدي هذا الكتاب إلى زوجتي كما أهديت إليها الكتب السابقة، فلقد ظلت سبعة وثلاثين عاماً تحبوني في صبر جميل بقدر من تسامحها، وحمائتها، وإرشادها، وإلهامها لا تفي به هذه المجلدات جميعها. ولكنها هي التي أشارت عليّ بأن أهدي هذا الكتاب إلى ابنتنا، وإلى زوجها، وإلى حفيدنا" (ص ٤١٢٢). يقودنا الفكر التربوي إلى أن الأسرة مودة ورحمة وسكن وعطاء فكري مشترك يتعلم الزوجان من بعضهما البعض داخل وخارج نسيج الأسرة كي يزدهر موكب الحضارة.

المحور الخامس: التربية المجتمعية

إلى أي مدى تطرق ديورانت إلى التربية المجتمعية؟

أشار ديورانت إلى أهمية التغير الاجتماعي ومدى صعوبته، وركز على أن تغيير العادات ليس سهلاً كتغيير القوانين. والدستور الذي يكتب له البقاء هو الدستور الذي ترضى عنه كل فئات الشعب وترغب بمحض إرادتها في المحافظة عليه (ديورانت، ٢٠٠٤م، ص ٥٤). قال فولتير "إن الكتب تحكم العالم" إننا نستطيع تثقيف الناس وإصلاحهم بالخطاب والقلم. إن التغيير يأتي من طريق التثقيف والتعليم تدريجياً بالوسائل السلمية (ديورانت، ٢٠٠٤م، ص ١٥٥، ١٩٢). ومن هنا يقف المثقف شامخاً لممارسة دوره التنويري في كل عصر يشجب التسلط ويشجع الحرية كوسيلة لرقى الواقع لا كآلية لإرضاء الشعوب ظاهرياً بل لممارستها على أرض الواقع. إن سيادة الشعب قضية جوهرية في الإصلاح المجتمعي لا سيما في المجتمعات التي أصبح القهر والتسلط والتعتيم قوام الحياة وعاملنا العربي ليس ببعيد من ذلك البلاء الذي تخلص منه الغرب أو كاد عندما مارس المفكرون دورهم الريادي في التنوير بعيداً عن الحيل الثقافية في التزلف والتملق والتسلق. إن التربية السياسية القويمة روح الحضارة وسر إبداعاتها.

وفي لغة فلسفية يناقش ديورانت الموضوع الاجتماعي التالي: "هل الناس فقراء لأنهم جهلاء، أم جهلاء لأنهم فقراء؟ تلك مسألة انقسم عليها الفلاسفة السياسيون إلى محافظين يؤكدون أهمية عامل الوراثة (التفاوت الفطري الموروث في القدرة العقلية)، ومصلحين يعتمدون على البيئة (أهمية التعليم

وإتاحة الفرصة). وبتزايد الثروة وتوزيعها ينمو العلم ويتقلص ظل الخرافة. ومع ذلك فإنه حتى البلد المزدهر ازدهاراً كبيراً—وبخاصة بين الفقراء المنهوكين والأثرياء الخاملين—نجد أن الفكر يعيش في متاهة من الخرافات: علم التنجيم، حساب الحمل (دراسة المعاني السحرية أو التنجيمية للأعداد)، قراءة الكف، الأعاجيب، الحسد، السحرة، الغيلان، الأشباح، العفاريت، التعزيم لاستحضار الجن، التعاويذ والرقي، تفسير الأحلام، الكرمات والمعجزات، الشعوذة والدجل، الخصائص الخفية، الشافية أو المؤذية، للمعادن والنباتات والحيوانات" (ديورانت، ج ٢٨، ص ٢٤٣). كانت تلك المعتقدات هي المهيمنة في العصر الذي أطلقوا عليه عصر الظلمات، والحق أن كل مجتمع تنفشى في الخرافات فهو مجتمع متخلف وإن عاش في القرن الواحد والعشرين.

يرى ديورانت أن الوعي الاجتماعي ارتفع مع نمو حركة الطباعة. الناشرون والطابعون في رأي ديورانت هم "الأبطال الأوائل الذين غدوا مجرى المداد الذي تدفقت منه المعرفة من عقل إلى عقل، ومن جيل إلى جيل" (ديورانت، ج ٣٠، ص ٢٢٩). و"كان لجوتبرج أثره البارز: فإن الطباعة عملت على نشر العلوم والتاريخ ونقد الأسفار المقدسة وروائع الوثنيين، وأصبح الفلاسفة الآن أقدر على التحدث إلى جماهير أكبر عدداً وأكثر استعداداً من ذي قبل، ولم يستنكفوا أن يهبطوا من أبراجهم العاجية ليعملوا على تبسيط المعرفة. ولم يكن هذا لأنهم وثقوا كثيراً في "الرجل العادي" كما عرفوه في ذلك العصر، ولكنهم وثقوا في أن نشر "الحقيقة" قد يعمل على تحسين سلوك البشر وتوفير مزيد من السعادة لهم. وأعتبر دالمبير أن "فن تعليم الإنسان وتنويره أنبل مهمة وهبة في متناول البشر"، وأصبح "التجاسر على المعرفة" شعاره الاستنارة الذي حققه عصر العقل وفاز به. ذلك أن الإيمان الذي آذن بإنبلاج فجره فرنسيس بيكون قبل ذلك بقرن من الزمان أصبح أساس الفكر المتحرر وأداته—أي أن الفكر تحرر بهذا من أساطير الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة وبرز العقل متألقاً في عظمة وحي جديد، وطالب بالسيادة والسيطرة في كل مجال وميدان، وعرض إصلاح التعليم والدين والأخلاق والأدب" (ج ٣٨، ص ٣).

من أهم مفارقات الحضارات أن الغرب النصراني تفوق عندما فارق سلطان الدين، والشرق المسلم أخفق عندما ابتعد عن أركان الدين.

لعب المصلحون والمفكرون و"الأبطال" دوراً حيويًا في توجيه المجتمعات. تحدث ديورانت باستفاضة عن حياة لوك في أكثر من ثلاثين صفحة (ج ٣٤، ص ٤٢-٦٣) وكذلك عن روسو وكتابه إميل (ج ٣٩، ص ٢٩٣-٣٠٩) وهي مقطوعات تربوية رائعة في الفكر التربوي وفي مجملها تكشف جهود فلسفة التربية في رسم مسار وتنمية الفرد أسريًا ومجتمعيًا؛ ثقافة وحضارة.

ولقد تناول ديورانت بقدر من التفصيل الآراء التربوية لجون أموس كومينوس وقدم تعريفاً لحياته ولخص مبادئه في التربية المثلى ومنها أن يكون التعليم عاماً، بصرف النظر عن الجنس أو مستوى المعيشة. وأن تكون التربية بدنية وعقلية وأخلاقية. وأن يتلقى التلاميذ تدريبات على الصحة والقوة والنشاط عن طريق ممارسة الحياة والألعاب في الهواء الطلق. وأن يكون التعليم عملياً، وألا يكون حبيساً في سجن التفكير النظري، بل مقروناً بالعمل والممارسة، وتدرّس العلوم تدريجياً، وتحسين الخلق (ج ٣٠، ص ٢٣٥-٢٣٦). كان كومينوس أول من ألف كتاباً مصوراً للأطفال سماه عالم المحسوسات المصورة، ولم يقتصر اهتمامه على الأطفال فقط إنما شمل به الأمهات (الهولي، والمسعد، ٢٠٠٢ م، ص ٧٥، شفشق، ١٩٨٠ م، ص ٢٢٢). ولا عجب أن يراه الباحثون كأول مؤسس للتربية الحديثة الخاصة بالطفل وأنه معلم الأمم. وإلى هذا اليوم يعتز الأوربيون بهذا العلم لأنه اعتنى بالتربية العقلية والأخلاقية على حد سواء علاوة على أنه وضع منهجه الحسي في التدريس فأثّر لعدة قرون في الفكر التربوي العالمي (الكندري، ملك، ٢٠٠٨ م، ص ٢١٩).

يرى برتراند رسل أن التعليم بالوسائل الحديثة والتمسك بالأدلة والبراهين وتطوير المناهج الدراسية والإدارة الحسنة الآمنة أفضل طريقة لإعادة بناء الأخلاق الإنسانية، وأن مدارسنا مفتاح المدينة الفاضلة وسبيلنا نحو ترقية نشاط الفرد أو الجماعة بشرط ألا يكون نمو الفرد أو الجماعة على حساب فرد آخر أو جماعة أخرى ما أمكن إلى ذلك سبيلاً (ديورانت، ٢٠٠٤ م، ص ٣٦٠).

لقد عرف ديورانت قدر المفكرين في بناء المجتمعات ورفي الأمم وترقية العقل، فأخذ في كل كتاباته يبسط الحديث عن عدد من أفكارهم ومساهماتهم ومعاناتهم. تلك الشذرات وغيرها في قصة الحضارة تستحق الإشادة بها، والإفادة منها وهي ذات قيمة تعليمية عالية بل هي بحق وحقيقة من نفائس الفكر الإنساني الطامح إلى تحقيق العدل المجتمعي والسعادة الفردية. إن من أكبر دروس الفكر التربوي في الحضارات قاطبة أن علاقة الإصلاح بالحضارة والثقافة علاقة وثيقة لا تنفصم صلاتها على مر العصور.

المحور السادس: ردد الواقع بالتربية الحضارية

كيف نوظف المبادئ التربوية المبتوثة على امتداد مسيرة الحضارات في حياتنا المعاصرة؟

ثمة فقر ثقافي صارخ عند طلابنا في الجامعة وغيرها فيما يتعلق بمعرفة علماء الفكر والثقافة عربياً وإسلامياً وعالمياً كما تشير الدراسات الميدانية لمحمد جواد رضا (٢٠٠٩ م، ص ٣٠) ولعل الشكوى من تدني المستوى الثقافي للأسف أصبحت ظاهرة عربية يشعر بها المربون وتؤكدتها الحقائق وأهم علاماتها قلة الإقبال على المكتبات وغياب دور المثقف الفعال في ممارسة رسالته التنويرية. إن كتب ديورانت مادة

موسوعية جيدة بل رائعة لتنوير فكر الناشئة، وتوسيع نطاق ثقافتهم، وتبصيرهم بأحوال الأمم وكفاح الشعوب وأعلام الفكر ودورهم في توجيه الواقع.

علاوة لما سبق وتماشيا مع تربية التسامح فإن الكثير من عبارات ديورانت تميل نحو تشجيع حوار الحضارات وتنفر من الصراعات ولكن الإشكال الحقيقي والسجال الفعلي في كيفية التطبيق. تركز رؤية ديورانت على أن الحرية في الامتزاج عن طريق التأثير المتبادل بين الأمم، فالشرق يأخذ عنا صناعاتنا ونتاجاتنا ويصبح غريباً وربما ساعدنا نحن الشرق على التخفيف من الفقر والخرافة، وأعانا الشرق على التواضع في الفلسفة والتهذيب في الفنون. فالشرق غرب، والغرب شرق، ولا بد عاجلاً أن يلتقي الاثنان على حد تعبير ديورانت (ج ٣٠، ص ١٦٥). هذا توجه غربي غير موفق في كثير من محاوره مع الاتفاق التام على أهمية التفاوض وضرورة التكامل. لن يحل هذا الطرح الصراع المتفاحم بين الطرفين، والأولى على الأقل عند المسلمين أن يكف الغرب عن وصايته وتسطله وتدخله في شئون الشرق ويتعين علينا في الشرق أن نتعلم أسس الاكتفاء الذاتي صناعة وإنتاجاً، فالشر في الاستهلاك والخير في الإنتاج والتعاون لا يعني السكوت عن اغتصاب مقدساتنا في فلسطين.

نجح ديورانت في إبراز قضية السلام ووضع يده على مكامن الضعف البشري حين قال "إن التعصب المقرون بالخرافات والجهل كان أساس البلاء في جميع القرون، ولن يتحقق السلام الدائم، ما لم يتسامح الناس مع بعضهم ويتعلم كل واحد منهم كيف يتسامح مع من يخالفه في الأمور الفلسفية والسياسية والدينية" (ديورانت، ٢٠٠٤م، ص ١٨٤). قال فولتير "وسيكون التاريخ غير ذي قيمة لنا إذا لم يعلمنا أن نكون يقظين حذرين ضد التعصب" (ج ٣٨، ص ٢٨٥).

تلتقي دعوات ديورانت الرشيدة مع نتاج رهط من المفكرين الذي يسعون إلى نشر الوعي العالمي بأهمية السلام بعيداً عن المكاسب السياسية الضيقة. لمع نجم تولستوي وبرنارد رسل وغاندي لأنهم من دعاة السلام ولازال الطريق طويلاً محفوفاً بعوائق غير هينة ولكن المحاولة لازمة لنشر قيم التسامح ثقافة وعملاً لا سيما لدى الناشئة لغد أكثر إشراقاً وأقل شروراً.

وفي عالم اليوم فئات ترفض الرؤية الانقسامية إلى العالم، وتعتمد التنمية الثقافية، وتروج للقيم الإنسانية، وتدرك قيمة التعددية والتنوع الخلاق في بناء الحضارة الإنسانية، وتبشر بمستقبل واعد يحقق كرامة الإنسان" (ملاوي، ٢٠٠٦م، عزوزي، ٢٠٠٣م). هذه الدعوات أمام درب طويل لتحقيق أجدياتها ولكن السلام الطريق الآمن للبشر الذين يؤمنون بالفكر ودوره في تقريب الأمم وتقليص حدة الصراعات.

وإذا كان الانغلاق مستحيلاً فلا بد - في العلاقة مع الآخر الحضاري - من البحث عن الموقف الوسط لتحقيق "التفاعل الحضاري"، من موقع الراشد المستقل، الذي يفتح على كل حضارات الدنيا، دون أن يفقد ذاتيته وهويته واستقلاله الحضاري (عمارة، ٢٠٠٠ م، ص ٢٦٩). يقوم التفاعل الحضاري على توظيف معطيات التاريخ الإنساني لتوثيق العلاقات بين ثقافات الأمم في ظل الاستقلال وعلى أساس الاحتفاظ بالخصوصية.

وانطلاقاً من معطيات هذه الدراسة فإن توجيه المعلمين والمعلمات نحو طائفة من القراءات المستوحاة من كتابات ديورانت تقدم للمعلمين زادا فكرياً نافعاً. قدم ديورانت تعريفات عديدة للحضارة والفلسفة والتربية وهي نظرات رصينة تزيد من حصيلة المثقف وترفع من رصيده الفكري. يقول ديورانت في تعريفه للتربية وذلك بعد انتهائه - مع زوجته - من تأليف قصة الحضارة "قبل ستين سنة كنت أعرف كل شيء أما الآن فأنا لا أعرف شيئاً. التربية عملية تحررية مستمرة ضد الجهل الذي يلازمنا" ولن يفارقنا. وهكذا يرى ديورانت من وحي حياته الزاخرة بالإنتاج والإبداع أن التربية عملية تحررية مستمرة ضد جهلنا: Education is a progressive discovery of our own ignorance

وفي هذه العبارة صدق ودقة في فهم طبيعة التربية وأن آفاقها لا حدود لها ولا قيود إذ أنها عملية مستمرة من المهد إلى اللحد ووكما ورد في الأدب الروماني "على المرء أن يواصل طلب العلم ما دام فيه عرق ينبض". وبالكلمات التالية انتهى كتابهما قصة الحضارة: "لقد انقضت الآن أربعون عاماً [وأصبحت لاحقاً ٥٠ سنة مع الأجزاء الأخيرة] من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نلحم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم فإننا سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً... والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع" (ديورانت، ص ٩٨١٠). يحكى أن ديورانت سئل ذات مرة أن يصف نفسه وعمله فقال: "لا أعتبر نفسي مفكراً أو فيسوفاً وإنما عاشق لعشاق الحكمة" (درويش، ٢٠٠٨ م). هذا التواضع يعكس إيمانه بضالة علمه مقابل حقائق الدنيا التي تعزب معظمها عن أذهاننا البشرية كلها.

حياة ديورانت تدفع المتعلم على وجه الخصوص السعي الدائم في طلب العلم والعطاء الهادر المستمر إن الارتباط الثقافي بين ول وإيريل ديورانت من أروع العلاقات التي يمكن أن تجمع بين الزوجين لا سيما وهما يضعان لأنفسهما مشروعاً للسياحة والكتابة والتعلم ويزداد تعلقهما وحبهما إلى آخر لحظة من حياتهما كما تدل السيرة الذاتية لديورانت.

قدم ديورانت في كتاباته عبارات نفيسة تفيض بالحكمة تداولها الناس عبر القرون وهي من روائع الأمثال والأقوال والمواقف العالمية من مثل "إن من يحتاجون يوماً ما إلى مصباح، يمدونه بالزيت"

(ديورانت، ٢٠٨٣) فمن يطلب المعالي يسعى إليها ويبدل من أجلها. وسئل طاليس عن أصعب الأشياء فأجاب بقوله الذي جرى مجرى الأمثال: "أن تعرف نفسك"، ولما سُئل عن أسهل الأشياء قال: "أن تسدي النصح"... وسئل كيف يستطيع الناس أن يعيشوا عيشة الفضيلة والعدالة فأجاب: "ألا نفعل نحن ما نلوم غيرنا على فعله" (ج ٦ ص ٢٥٣). فيما يلي مجموعة أفكار تربوية تستحق أن يناقشها المثقفون:

١. "قال سقراط لا أعرف سوى شيء واحد وهو أنني لا أعرف شيئاً" (ديورانت، ٢٠٠٤م، ص ١٢) ثم يعلق ديورانت "إن الفلسفة تبدأ عندما يبدأ الإنسان يتعلم الشك".

٢. قال ديورانت المساواة في التعليم أمام جميع الرجال والنساء بغض النظر عن إيراد عائلاتهم... مثل هذا يجعل الديمقراطية جديرة باسمها (٢٠٠٤م، ص ٤٨).

٣. لقد طالب هربرت سبنسر بزيادة تدريس العلوم وإقلال دراسة الآداب في برامج التعليم. فجاء جون ديوي وأضاف على ذلك وجوب تدريس العلوم بطريقة عملية تأتي عن طريق الممارسة الحقيقية النافعة للحرف والمهن، لا طريق تعلم الكتب (ديورانت، ٢٠٠٤م، ص ٣٨٢).

٤. "والعظماء عندي هم كل الذين بزوا غيرهم في النافع المبهج" (انظر ديورانت، ج ٣٧، ص ١٠١).

٥. قال شوبنهاور "إن شخصية الإنسان تكمن في إرادته" (ديورانت، ٢٠٠٤م، ص ٢٤٥).

٦. علاقة التلميذ بالمعلم في الحضارة اليونانية هي علاقة حب وإرشاد وصدقة وكان زينون الرواقي يعلمهم وهو يمشي (ديورانت، ٢٠٠٤م، ص ٤٩، ٨٤).

٧. ويسدي أبقراط للناس هذه النصيحة: "عش عيشة صحية تنج من الأمراض إذا انتشر في البلد وباء أو أصابتك حادثة. وإذا مرضت ثم اتبعت نظاماً صالحاً في الأكل والحياة أتاح لك ذلك أحسن الفرص للشفاء". وكثيراً ما كان يوحى بالصوم إذا سمحت بذلك قوة المريض لأنه "كلما أكثرنا من تغذية الأجسام المريضة زدنا بذلك تعريضها للأذى". ويمكن القول بوجه عام إن "الإنسان يجب ألا يتناول إلا وجبة واحدة من الطعام في اليوم إلا إذا كانت معدته شديدة الجفاف" (ديورانت، ج ٧، ص ١٩٠).

٨. اختصت مدرسة أفلاطون (الأكاديمية) بالرياضيات والفلسفة السياسية التأملية، أما مدرسة أرسطو (اللوقيون) فقد مالت أكثر إلى تدريس علم الأحياء والعلوم الطبيعية (ديورانت،

- ٢٠٠٤م، ص ٥٤). وهذا يتسق مع فلسفة كل منهما حيث مال أفلاطون إلى المثالية بينما كان أرسطو يميل للفلسفة الواقعية.
٩. "العلم العمود الفقري للفلسفة"، "الفكر المجرد عن العمل ليس سوى مرض" (ديورانت، ٢٠٠٤م، ص ٥٤، ٢٧٣).
١٠. احتقرت الفلسفة اليونانية الأعمال اليدوية، واحتقرت طاقات المرأة، وافتقرت علوم أرسطو إلى التجربة والاختبار (ديورانت، ص ٦٦، ٦٧، ٧٨).
١١. قال فولتير "والخرافة والحرية لا يمكن أن يسيرا يداً بيد" (ج ٤٠، ص ١٨٤). قال ديورانت " وإذا اضطر أبنائنا يوماً إلى خوض معركة تحرير الفكر من جديد، وهو أمر يبدو جائزاً، فليتمسوا بالإلهام والتشجيع في كتب فولتير التسعة والتسعين. ولن يجدوا فيها صفحة واحدة تبعث على الملل" (ج ٤٢، ٣٦٣).
١٢. "كان العلم قبل رسو جنينا ، وولد بمجيئه" (ديورانت، ٢٠٠٤م، ص ٥٩).
١٣. "عظمة روما قامت على عظمت القوة لا على ضوء الفكر الذي امتاز به اليونان" (ديورانت، ٢٠٠٤م، ص ٨١).
١٤. حرية الرأي مبدأ أصيل. اختلف فولتير مع جان جاك روسو ولكن عندما تعرض روسو للخطر وقف فولتير إلى جانبه وقال "أنا لا أتفق معك في كلمة واحدة مما قلته، ولكنني سأدافع عن حقك في الكلام وحرية التعبير عن أفكارك حتى الموت" (ديورانت، ٢٠٠٤م، ص ١٩٢)، وكذلك وقف روسو مع فولتير (ج ٤٢، ص ٣٦٧، ٣٧١).
١٥. يتصف حكم المسلمين بالتسامح والتسامح مع الأديان (ديورانت، ٢٠٠٤م، ص ١١٧).
- نجح ديورانت في أن يستغل التاريخ بأسلوب حكيم فهو حسب درويش (٢٠٠٨م) بذل عمره في كتاب واحد استغرق خمسين عاما وهذا المشروع المذهل هو كتاب قصة الحضارة ويعتبر هذا الكتاب عمل موسوعي ضخم. كان يقرأ آلاف من أجل أن يكتب قصة الحضارة بمساعدة زوجته وابنته. إن "كتاب قصة الحضارة للفيلسوف والمؤرخ الأمريكي ول ديورانت بأجزائه الستة والأربعين عمل فريد ورائع لا بل أكثر من رائع لا يقاربه عمل آخر ولا يغني عنه سواه. فقد درس ديورانت في هذا الكتاب الضخم الحضارة الإنسانية منذ فجر التاريخ وحتى مطلع القرن التاسع عشر".

إن قصة ديورانت في حد ذاتها ملهمة وتعكس أهمية دراسة الفكر التربوي في الحضارات لإنتاج معرفة مبدعة، دقيقة وواسعة.

إن أبلغ درس تربوي يمكن أن نقتبسه من وحي قصة الحضارة العناية بمنهج البحث العلمي وفق أسس موضوعية. قال ديورانت "وسيدهش القارئ المسيحي من كثرة الصحف التي اختصصنا بها الثقافة الإسلامية كما أن العالم الذي درس حضارة الإسلام سيأسف أشد الأسف للحيث الضيق الذي خصصنا به حضارة المسلمين الزاهرة في العصور الوسطى ولاضطرارنا إلى اختصار تاريخها هذا الاختصار الشديد. ولقد بذلنا جهدنا على الدوام في أن نكون بعيدين عن الهوى والتحيز وأن ننظر إلى كل دين وكل ثقافة كما ينظر إليهما أهلها؛ ولكننا مع هذا لا ندعي العصمة من الهوى ولا ننكر أنه قد بقي في قصتنا شيء من التحيز في اختيار مادة الكتاب وفي توزيع صحفه على موضوعاته المختلفة إن لم يكن في غير هاتين الناحيتين. ذلك أن العقل كالجسم سجين في جلده لا يستطيع الفكك منه. ولقد أعدنا كتابة المخطوط ثلاث مرات، وكنا في كل مرة نكشف فيه عن أخطاء جديدة، وما من شك أنه ما يزال به كثير منها، غير أننا قد ضحينا بتحسين الجزء بغية إكمال الكل، وإنا لنرحب بكل ما يبلغ إلينا من هذه الأخطاء" (ص ٤١٢٢).

أبرز النتائج

١. الحضارة عند ديورانت هي ذلك النظام الاجتماعي الذي يدعم الإنتاج والإبداع الثقافي، والتربية وسيلة نقل للحضارة من جيل لآخر.
٢. ليست الحضارة بالمعنى العام ضرباً من توسع العمران، وتدمير اللوجدان بل الحضارة الحقبة سمو بالإنسان وعناية بالعمران.
٣. فن تعليم الإنسان وتنويره أنبل مهمة، وأعظم هبة، وأخطر رسالة في متناول البشر.
٤. يقوم التفاعل الحضاري على توظيف معطيات التاريخ الإنساني لتوثيق العلاقات بين ثقافات الأمم في ظل الاستقلال وعلى أساس الاحتفاظ بالخصوصية.
٥. الكتابة أروع ما خلفه السومريون، لم يكن القلم في حضارتهم أقل قوة من السيف.
٦. ليس ثمة شعب قديم أو حديث قد رفع منزلة المرأة مثل ما رفعها المصريون القدماء حيث شاركت المرأة بفاعلية لافتة للنظر في موكب الحضارة.

٧. تثبت الشواهد التاريخية في أروقة الثقافة وعروق الفكر الإنساني أن للمرأة - من مثل الشاعرة سافو وغيرها - إسهامات تعليمية وأدبية متميزة فإن عقلها المبدع لا يقل في قدرته عن عقل الرجل، وإنما الموانع الاجتماعية وغيرها حجبت هذه القدرة من الظهور بشكل بارز في الكثير من المجالات.

٨. قرع فرنسيس بيكون - أعظم عقل في العصور الحديثة - الجرس الذي جمع العقول والذكاء، وأعلن أن أوربا قد أقبلت على عصر جديد.

٩. تحدث ديورانت باستفاضة عن حياة لوك، وروسو، وكومنيوس وغيرهم وكان موفقا في إبراز أفكارهم التربوية.

١٠. الدين مكون أساسي للحضارة وله وظيفة جوهرية في هداية البشرية ورفيها وتمدنها ولكن الفهم الخاطيء له يسبب مشاكل إنسانية حادة لا حصر لها وقد تهدد المجتمع بالهلاك والسقوط في الهاوية.

١١. يتميز منهج ابن خلدون بقوته ومداه ودقة تحليله الاجتماعي والفلسفي وكتاب "المقدمة" أهم مؤلف تاريخي في العصور الوسطى.

١٢. إن المنعطفات الفكرية الهائلة والكيانات الثقافية المتنوعة ارتقت بمسيرة الحياة عبر ظهور فلاسفة قدموا قراءات جديدة لتحسين نمط المعيشة ورفع مستوى التربية والتعليم.

١٣. الإسلام كان سندا للمسلمين في تنافسهم الحضاري في الماضي ويمكنه أنه يلعب الدور نفسه لأنه يحض على العلم والثقافة والتمدن. الإسلام قوة إيجابية لا يمكن تجاهلها.

١٤. تتضمن عبارات ونظرات ديورانت - في كل كتبه محل الدراسة الراهنة - على جوانب تربوية قيمة ولفئات تاريخية دقيقة عن أعلام التربية ومناهج المصلحين ومن الأهمية بمكان الإفادة منها، والاستناد عليها بعد التمحيص العلمي لذلك التراث الذي تناول بإطلالة موفقة إلى حد كبير تاريخ الإيمان والعقل في قرون طويلة.

التوصيات

١. حث المرين على دراسة الفكر التربوي والاهتمام بدراسة حياة المرأة في المجتمع وبيان أثرها العظيم، ودورها الكريم في تربية الناشئة، وخدمة المجتمع، وترقية الفكر، والثقافة والعلوم بصورة واعية متوازنة.

٢. تقديم دورات تدريبية منهجية تتضمن على قصص بانية للأخلاق عن نساء نبيلات وأعظم الرجال من حضارات شتى لتنمية وشحن الهمم ولترسيخ الحس الحضاري في نفوس الناشئة ولتوظيف ثمرات الفكر التربوي في تنمية المهارات الحياتية.

٣. تعريف المعلمين والمعلمات وأولياء الأمور بروائع الحضارة الإسلامية تربويا وتعلما وسبل تطبيقها في الميدان.

٤. تدريب الطلبة عمليا على الرجوع إلى الكتب التاريخية العالمية والموسوعات الضخمة وكيفية البحث فيها واستثمارها بحكمة دون انبهار بها أو تقليل من شأنها. إن الاعتماد على الملخصات والمذكرات الموجزة من أهم عوامل تسطيح ثقافة المتعلم.

٥. تقديم حياة ول ديورانت للطفل العربي كقدوة نوعية مع التركيز على قصة تأليفه للكتب، وجدده وسعيه، وارتباطه الفكري والعاطفي بزوجته وأسرته، وسياحته الواعية في أرجاء العالم.

٦. توجيه أجهزة الإعلام ومؤسسات التعليم لتناول قضايا الفرد والمجتمع في ضوء مستجدات الحاضر، ودروس الماضي، ومن وحي تربية حضارية تبرز قيم التسامح والانفتاح على الآخر مع الحفاظ على الخصوصية، ونقل الفكر من الصراع الحضاري إلى التفاعل الإيجابي.

أهم المراجع العربية

ابن الأزرق (٢٠٠٧م). بدائع السلك في طبائع الملك. القاهرة: مكتبة الأسرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب).

ابن خلدون، عبدالرحمن (بدون سنة طبع). مقدمة ابن خلدون. القاهرة: دار الشعب.

أبو سليمان، عبدالحميد أحمد (١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م). الرؤية الكونية الحضارية القرآنية المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني. ط ١، القاهرة: دار السلام.

إسبوزيتو، جون ل (١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م). التهديد الإسلامي خرافة أم حقيقة. ترجمة قاسم عبده قاسم، ط ٢، القاهرة: دار الشروق.

أغا، رياض نعسان (٢٠٠٩م). في الإسكندرية. موقع وزارة الثقافة: سوريا:

<http://www.moc.gov.sy/index.php?d=48&id=471>

- إمام، إمام عبدالفتاح (٢٠٠٩م). نساء فلاسفة. بيروت: دار التنوير.
- أوليري، دي لاسي (١٩٨٢م). الفكر العربي ومركزه في التاريخ. ترجمة إبراهيم البيطار. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- بحري، منى يونس ، قطيشات، نازك عبدالحليم (١٤٣٠هـ-٢٠٠٩). في التربية المقارنة: دراسة نوعية. ط١، الأردن: دار صفاء.
- تشي، وانغ لي (٢٠٠٦م). كونفوشيوس .. رمز الثقافة التقليدية الصينية . موقع الصين اليوم <http://www.chinatoday.com.cn/Arabic/2006n/0604/p39.htm>
- التويجري، عبدالعزيز بن عثمان (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م). (الدور الحضاري للأمة الإسلامية في عالم الغد). الإسلام اليوم. العدد الثامن عشر، السنة ١٨، الرباط: المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.
- جهامي، جيار ، و دغيم، سميح (٢٠٠٦م). الموسوعة الجامعة لمصطلحات الفكر العربي الإسلامي: تحليل ونقد. ط١، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.
- الحبيب، سهيل (٢٠٠٨م). خطاب النقد الثقافي في الفكر العربي المعاصر. ط١، الطليعة: بيروت.
- خريسات، محمد ، وآخرون (١٩٩٩م). تاريخ الحضارة الإنسانية. الأردن: مؤسسة حمادة.
- درويش، صبحي (٢٠٠٨م). الفيلسوف والمؤرخ ول ديورانت. موقع دروب: <http://www.doroob.com/?p=26350>
- ديورانت، ول (١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م). قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي. ط١، ترجمة د. فتح الله محمد المشعشع. بيروت: دار المعارف.
- ديورانت، ول ، ديورانت، إيريل (بدون تاريخ). قصة الحضارة. تونس: جامعة الدول العربية.
- ديورانت، ويل (٢٠٠١م). أبطال من التاريخ: مختصر قصة الحضارة. ويل ديورانت. ترجمة سامي الكعكي وسمير كرم ومراجعة عمر الأيوبي. ط١، بيروت: دار الكتاب العربي.
- رسل، برتراند (٢٠٠٧م). نحو عالم أفضل . ترجمة ومراجعة دريني خشبة وعبدالكريم أحمد . القاهرة: المركز القومي للترجمة.

رضا، محمد جواد (٢٠٠٩م). جامعة الكويت... وتسطيح العقل الثقافي: دراسة حالة. الكويت: الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية.

رمضان، خيرية وجامع، علي (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م). تطور الرياضيات عبر العصور: دراسة تاريخية علمية. ط ١، الكويت: دار الترجمة.

الزحيلي، محمد (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م). موسوعة قضايا إسلامية معاصرة. ط ١، دمشق: دار المكتبي.

زكريا، فؤاد (٢٠٠٢م). الغرب ذلك المتآمر الأزلي! في كتاب العربي: الإسلام والغرب. الكويت: وزارة الإعلام.

سعد، قاسم علي (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م). الأرقام العربية تاريخها وأصالتها وما استعمله المحدثون وغيرهم منها. في الأحمديّة. العدد الثالث. دبي: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث.

السيف، توفيق (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م). الحداثة كحاجة دينية. ط ١، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.

الشاهين، غانم عبدالله (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م). أنساق القيم في تطور الفكر التربوي. ط ١، الكويت: الدار الأكاديمية.

شومان، محمد (٢٠٠٩م). هويتنا الثقافية: مشروع فكري. ط ١، القاهرة: مركز الحضارة العربية.

شيحة، عبدالمجيد عبدالتواب (٢٠٠٦م). تطور الفكر التربوي في العصور القديمة والوسطى. ط ١، الأردن: دار الثقافة.

الصلابي، علي محمد (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م). الوسطية في القرآن الكريم. ط ١، القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة.

الطراح، علي أحمد (٢٠٠٤م). نحو بناء مشروع وطني لمواجهة ظواهر العنف والتطرف والإرهاب: تحليل سسيو-تاريخي. مجلس التعاون الخليجي والمتغيرات الإقليمية والدولية. جامعة الكويت: الدراسات الإستراتيجية والمستقبلية.

عبده، بدوي (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م). حضارتنا بين العراق والتفتح. ط ١.

عزوزي، حسن (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م). الإسلام وترسيخ الحوار الحضاري. موقع بلاغ.

- علي، سعيد إسماعيل (١٩٩٦م). *التربية في الحضارة المصرية القديمة*. القاهرة: علم الكتب.
- عمارة، محمد (٢٠٠٠ م). *الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية*. القاهرة: نخضة مصر.
- عمر، أحمد (١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م). *فلسفة التربية في القرآن الكريم*. ط ١، دمشق: دار المكتبي.
- الغزالي، محمد (١٤٢١ هـ ٢٠٠٠م). *سر تأخر العرب والمسلمين*. ط ١، دمشق: دار القلم.
- الفارس، جاسم (١٣٢٣هـ-٢٠٠٢م) (أسس البحث العلمي الإسلامي). في الأحمديّة. العدد العاشر دبي: دار البحوث والدراسات الإسلامية وإحياء التراث.
- الكندري، لطيفة حسين - وملك، بدر محمد (١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م). *تعليقة أصول التربية*. ط ٣، الكويت: مكتبة الفلاح.
- كوفي، ستيفن (١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦م). *العادة الثامنة من الفعالية إلى العظمة*. سورية: دار الفكر.
- ليتل، جون (٢٠٠١م). *مقدمة كتاب أبطال من التاريخ: مختصر قصة الحضارة*. ويل ديورانت. ترجمة سامي الكعكي وسمير كرم ومراجعة عمر الأيوبي. ط ١، بيروت: دار الكتاب العربي.
- محمد، محمد عبدالسلام وآخرون (١٤١٨هـ-١٩٩٨م). *دراسات في الثقافة الإسلامية*. ط ٧، الكويت: مكتبة الفلاح.
- محمود، محمود عرفة والعبد الغني، عبدالرحمن محمد، والسهيل، نايف عيد (١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م). *دراسات في الحضارة العربية الإسلامية*. ط ١ الكويت: مكتبة ابن كثير.
- المرأة (٢٠١٠م). العدد ٢٥، مارس. الكويت.
- المسيري، عبدالوهاب (١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م). *دراسات معرفية في الحداثة الغربية*. ط ٢، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.
- ملكاوي، فتحي (٢٠٠٦م). *رؤية العالم "عند الإسلاميين"*. موقع إسلام أون لاين: <http://www.islamonline.net>
- موقع المجمع الثقافي. *قصة الحضارة*. <http://www.civilizationstory.com/civilization>
- مؤنس، حسين، (١٩٩٨م). *الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها*. ط ٢، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

النشمي، عجيل جاسم (١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م). *خواطر في الحضارة والفقہ*. تشرف بالعباية بما:
ياسر عجيل النشمي. ط ١، الكويت: مكتبة المعارف المتحدة.

وظفة، علي - والشريع، سعد (٢٠٠٥ م). *التربية تاريخاً والفكر التربوي تطوراً: معانيات في جدل
الواقع والنظرية*. ط ١، الكويت.

يونس، مجدي محمد (١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م). *تاريخ التربية والفكر التربوي*. الرياض: مكتبة الرشد
ناشرون.

أهم المراجع الأجنبية

Hill, D. r. (1994). Arabic fine Technology and its influence on European
mechanical engineering. In D, A. Agius & R. Hitchcoch. (eds .) *(Arab Medieval
Europe. Folia scholastica Mediterranean*. London: Ithaca Press.

Dunn, S. G (2005). *Philosophical Foundations of educations: Connecting
Philosophy to Theory and Practice*. USA: Pearson Merrill Prentice Hall.

Palmer, J O (2001). Henry Giroux. In Fifty modern thinkers on education: from
Piaget to the Present. Palmer, J O (ed). London: Routledge.

Scherer, M (2010). Vital connection. In *educational leadership*. Vol. 67 No. 4,
ASCD.

Muessig, H. & Allen ,D. (1962). Islamic contribution to American education. In
R.E. Gross (Ed.). *Heritage of American education* .Boston, MA: Allyn & Bacon.

John Little and the Estate of Will Durant (2006). **Will Durant Foundation**.
<http://www.willdurant.com/bio.htm>

Durant, Will; and Durant, Ariel. (2010). Encyclopædia Britannica.
Encyclopaedia Britannica Ultimate Reference Suite. Chicago: Encyclopædia
Britannica.

James, George G. M. (1992). *Stolen legacy*. Virginia: U.B.& U.S.
Communications systems, Inc.

Gutek, G. L (2005). *Historical and Philosophical Foundations of Education: A
Biographical Introduction*. 4th ed, USA: Pearson Merrill Prentice Hall.

"William James Durant." *The Columbia Encyclopedia, Sixth Edition*. 2008.
Retrieved March 11, 2010 from Encyclopedia.com:
<http://www.encyclopedia.com/doc/1E1-Durant-W.html>

Islamic horizons (September-October 2001). Religions have unity in diversity.
In *Islamic horizons*. USA.

Siddiqi, M. (September-October 2001). Religions have unity in diversity. In *Islamic horizons*. USA.